

# تصريح بلفور في إطار المشروع البريطاني لإعادة تنظيم شؤون "الشرق الأوسط": 1916 - 1921.

## إعداد

أ.م.د. أحمد جلال بسيوني

الاستاذ المساعد بقسم التاريخ كلية الآداب - جامعة دمنهور

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور  
العدد الثالث و الستون - يوليه - الجزء الثاني - لسنة 2024



## تصريح بلفور في إطار المشروع البريطاني لإعادة تنظيم شئون "الشرق الأوسط": 1916 - 1921.

أ.د.م. أحمد جلال بسيوني

### تمهيد:

لا يختلف اثنان على أن ما بات يُعرف بـ "تصريح بلفور Balfour Declaration" مثل حدثًا تاريخيًا بامتياز، فالتاريخ ينبثق من الحدث التاريخي، أي الحدث ذو الأثر الممتد، ولعله لا يوجد امتداد لحدث تاريخي على مدار قرن من الزمان يضاهاه هذا التصريح الذي أصدره آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour وزير الخارجية البريطاني (10 ديسمبر 1916 - 23 أكتوبر 1919) في كتاب مؤرخ بالثاني من نوفمبر 1917. ولعله كذلك لم يحظ حدث تاريخي في تاريخ المنطقة العربية حتى يومنا هذا بديمومة الاستمرارية والجدلية التاريخية كما حظي هذا التصريح، وهو الأمر الذي انعكس على ديمومة استمرارية الدراسات التاريخية حوله حتى يومنا هذا.

ولا تهدف هذه الدراسة إلى تقديم سرد تاريخي لتصريح بلفور، أو إلى تقديم عرض نقدي لتلك الدراسات السابقة -وما أكثرها-، وإنما تهدف إلى مناقشة هذا التصريح في إطار المشروع البريطاني لإعادة تنظيم شئون المنطقة الجديدة، التي خططت لإنشائها تحت مسمى "الشرق الأوسط" خلال الفترة 1916، وهي السنة الفعلية لبدء المشروع، حتى سنة 1921 وهي السنة التي أقر فيها بمؤتمر القاهرة. فبعد انقضاء مئة عام نجد أنفسنا أمام السؤال القديم الجديد، هل يعيد التاريخ نفسه؟، فالزمان قد انقضى، ورجاله رحلوا، لكن المكان ظل ثابتًا، والمشكلة لا تزال قائمة بل وتفاقت تبعاتها عبر السنوات، والأطراف الدولية والإقليمية والمحلية لا تزال موجودة، وإن كانت قد تمرحلت توازناتها، وتغيرت أشكالها وتكتلاتها.

ومن هنا فيُتوقع من تلك الدراسة مناقشة بعض القضايا المهمة التي تناولتها تلك المرحلة، كالاقتراحات التي قدمها الخبراء البريطانيون حول فلسطين ومستقبلها، والحركة الصهيونية وحميتها من وجهة نظرهم، وكذلك المستجدات التي طرأت على أولوية المصالح البريطانية خلال تلك الفترة، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم عسكرية أم إدارية، وكان لها تأثيرها المباشر على خط سير مشروعها لإدارة شئون "الشرق الأوسط"، ومن بينها ملاسبات إصدار هذا التصريح، وموقعه من هذا المشروع المتكامل الذي أدارته

بريطانيا باحتراف ومرونة طوال سنى الحرب العالمية الأولى حتى إقراره في مؤتمر القاهرة في مارس 1921.

وسوف يتم تناول كل هذه القضايا من خلال منهج القراءة الكولونيالية للتاريخ، وليس القراءة ما بعد الكولونيالية للتاريخ، أي أنه لن يتم تناوله من زاوية تفكيك المعرفة التاريخية التي سعت قوى الاستعمار الغربية إلى ترسيخها، وذلك لأن الباحث لا يرى واقعية في النظرية الأخيرة (القراءة ما بعد الكولونيالية للتاريخ) لقيامها على الانتقاء وليس الشمولية في تناول الحدث التاريخي، وربما كان سبب ذلك أن أغلب من تبنا تلك النظرية كانوا من المنطقة المسماة "العالم الثالث" بشكل عام، بعد انقشاع فترة الاحتلالات الغربية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كنوع من المقاومة الفكرية التي بذلوا فيها مجهودات كبيرة -لها وزنها وتقديرها- في محاولات تقويض ودحض الأفكار الغربية الاستعمارية بعامه، ولذا فإننا نعتقد أن تبني هذا المنهج -وإن كان له وجهته في كثير من القضايا- قد فرغ كثير من الأحداث التاريخية من صورتها البانورامية، لبعده عن تناول أصول ودوافع وخلفيات هذا الحدث التاريخي.

ولهذا سيعتمد منهج هذه الدراسة (القراءة الكولونيالية للتاريخ) على الغوص في خلفيات صانعي هذا الحدث التاريخي الاستعمارية، ودوافعهم السياسية، وأولوياتهم الاقتصادية والاستراتيجية، وذلك من خلال تحليل ودراسة أفكارهم أنفسهم؛ تلك الأفكار التي دونوها في آلاف الوثائق من برقيات ومراسلات وخطابات وتقارير وشروح، من خلال مبدأ احتكار بريطانيا القوة والنفوذ، وليس توازنها. وسوف يكون كل هذا من خلال أربع نقاط هي: أولاً: تضارب المصالح بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية حول وضع فلسطين؛ ثانياً: فلسطين بين الثورة البلشفية والمشاركة الأمريكية وتبادل التفاهات والتوازنات؛ ثالثاً: فلسطين من التصريح إلى الاحتلال البريطاني؛ رابعاً: فلسطين والصهيونية في مشروع "الشرق الأوسط" البريطاني. ثم تأتي الخاتمة التي سنعرض فيها بأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وكل ذلك بعد مدخل سريع يعكس خلفية الأحداث التي نحن بصدد مناقشتها.

## مدخل:

بقيام الحرب العالمية الأولى بات لمنطقة الشرق الأدنى بعامة، ومنطقة المشرق العربي بخاصة أهمية كبيرة في الشقين الحربي والسياسي، فرسمت كل القوى المتحاربة سيناريوهاتها، وحاكت مخططاتها للظفر بالنصر، إلا أن بريطانيا كان لها نصيب الأسد من تلك السياسة بحكم قدم وقوة تواجدها ونفوذها في المنطقة، وكان من بين ما اتخذه رجالها آنذاك للتعامل مع هذا الأمر إنشاء "المكتب العربي"<sup>1</sup> بالقاهرة، والذي ضم خيرة

<sup>1</sup> تم إنشاء "المكتب العربي Arab Bureau" في فبراير 1916، وكان مقره وقتها ثلاث غرف مؤثثة بكافة وسائل الراحة والرفاهية بفندق سافوي Savoy Hotel الفاره والأنيق المطل على ميدان سليمان باشا [طلعت حرب] بالقاهرة، ألحق بها أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا آنذاك، من آلات ومعدات لخدمة عملية صنع القرار البريطاني فيما يتعلق بالشئون العربية بصورة موحدة وفعالة. وكانت الوظائف المنوطة لأعضاء هذا المكتب العربي تتمحور حول رفع التقارير والمنكرات إلى وزارة الخارجية أو وزارة الحربية في لندن، كما أشرف رجاله على إصدار نشرة سرية سُميت "النشرة العربية" لمعالجة الأحداث السياسية والحربية المختلفة المتعلقة بالبلاد العربية والدولة العثمانية والحركة العربية بشكل عام، كما كان من مهامهم بث الإشاعات، وتوليد الدعايات، واختلاق الأزمات كي لا تخبو جذوة الثورة العربية المشتعلة آنذاك ضد الأتراك. وكثيراً ما ظهرت خلافات في وجهات النظر بين خبراء هذا المكتب العربي في القاهرة من ناحية، وبين رجال الأجهزة المختصة في لندن من ناحية أخرى، ليس لأن القاطنين في القاهرة كانوا أصدقاء للعرب، وإنما لكونهم في قلب الأحداث، والأقدر على فهم تداخلها وتشابكها بحكم تكوينهم وخبرتهم ومعاشتهم.

وقد ضم "المكتب العربي" خيرة المسؤولين البريطانيين في المنطقة كان منهم قادة ومدراء مثل سير هنري مكماهون Sir Arthur Henry McMahon، المندوب السامي البريطاني بالقاهرة (1915-1917)؛ سير ريجنالد وينجيت Sir Reginald Wingate، سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان (1899-1916)، والمندوب السامي البريطاني في القاهرة (1917-1919) خلفاً لمكماهون؛ وسير رونالد ستورز Sir Ronald Storrs، السكرتير الشرقي لدار الانتداب البريطاني بالقاهرة آنذاك؛ وسير جلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton، رئيس قلم الاستخبارات المدنية والعسكرية في مقر القيادة العامة للقوات البريطانية. وبجانب هؤلاء القادة والمدراء ضم المكتب العديد من الخبراء في شئون المشرق العربي ممن كانوا يعملون في قسم الاستخبارات في القيادة العامة، أو من الموظفين السياسيين في دار المندوب السامي، وجُلهم من الرحالة وعلماء الآثار والمستشرقين والضباط العسكريين، ممن لهم خبرة كبيرة بالمنطقة وأحوالهم وتعميراتها، مثل توماس إدوارد لورانس T. E. Lawrence [لورنس العرب]، وجرترود بل Gertrude Bell، السكرتير الشرقي لدار الانتداب البريطاني بالعراق، وأورمسي جور Ormsby Gore، وجورج ستيفورت سيميز George Stewart Symes، وفيليب جرافس Philip Graves، وديفيد جورج هوجارث George David Hogarth باحث الآثار ودراسات الحضارات القديمة، والذي كان مديراً لهذا المكتب، وسير كيناهان كورنواليس Sir Kinahan Cornwallis، ضابط المخابرات البحرية، الذي عمل ككاتب لديفيد جورج هوجارث مدير المكتب العربي، ثم خلفه في هذا المنصب حتى عام 1920.

رجالها العارفين بأحوال المنطقة وأهلها، وهو ما مكنها من إدارة استراتيجية مرنة تخللتها سلسلة من الوعود المتناقضة، بدأتها بما عُرف باسم "مراسلات مكماهون- الحسين" سنة 1915. وفي العام التالي، توصل الحلفاء الثلاثة: بريطانيا وفرنسا وروسيا إلى صيغة تفاهم حول تقسيم ذات المنطقة، التي تفاوضت بريطانيا بشأنها مع الشريف حسين، وخرجت نصوص أولية سرية في اتفاقية ثلاثية بينهم، وعرفت لاحقاً باسم الاتفاقية الأنجلو - فرنسية، أو المشهورة باسم اتفاقية: "سايكس - بيكو"، وذلك بعد خروج الروس منها بسبب قيام الثورة البلشفية في أكتوبر 1917.

وفي العام الذي يليه كانت بريطانيا تتخذ قراراً آخر بدا في الظاهر أنه أكثر تناقضاً، حينما أصدر وزير خارجيتها تصريحه الشهير للصهيونية في مطلع نوفمبر 1917، المعروف باسم "تصريح بلفور"، بالعطف عليهم لإنشاء ما أسمته "وطناً قومياً" لهم في فلسطين، وفي العام الذي يليه كانت بريطانيا توطد أقدامها في أغلب مناطق المنطقة العربية بقوة النصر العسكري، وهكذا بالتدريج نجح البريطانيون في الوصول إلى أهدافهم الواحدة تلو الأخرى، عبر سلسلة من الوعود التي حنثوا بها جميعاً بالنسبة للعرب، بينما تفاوتت موائمتهم حسب درجة مصالحهم مع حلفائهم وأصدقائهم الآخرين. وبانتهاء تلك الحرب العالمية الأولى والدخول في مرحلة المؤتمرات الدولية، بغرض إقرار تسويات مقبولة لنتائجها، ظهرت مستجدات عدة غيرت بريطانيا على أساسها أولوياتها في المنطقة، فسعت للبحث عن الوسيلة الناجعة لإنهاء ترتيب أوضاعها<sup>2</sup>.

انظر بالتفصيل: خيرية قاسمية، "من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى: المكتب العربي في القاهرة، قراءة في الوثائق البريطانية"، دراسات تاريخية، العددان 17، 18، دمشق 1984، ص 160، 161؛

كاري إي ماير؛ و شارلين بلير بريزاك، صناع الملوك: اختراع الشرق الأوسط الحديث، ترجمة: فاطمة نصر (القاهرة: سطور الجديدة، 2010)، ص 235، 236.

<sup>2</sup> انظر بالتفصيل هذا الموضوع في:

أحمد جلال بسيوني، "سايكس بيكو: إشكالية مسار مخطط من الفكرة إلى الواقع 1914-1921"، منشور في كتاب: ندوة العالم العربي بعد مائة عام من سايكس بيكو، إعداد: صالح محمد عمر، إشراف وتقديم: أشرف محمد مؤنس (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، مركز تاريخ مصر المعاصر، 2017)، ص 31-78.

### أولاً: تضارب المصالح بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية حول وضع فلسطين<sup>3</sup>:

منذ بداية مخطط تقسيم المنطقة العربية في المشرق، كانت فرنسا ممثلة في مفاوضات مسيو جورج بيكو غير واثقة في بريطانيا ونواياها، وهو الأمر الذي لم يكن يرق للإدارة البريطانية خلال تلك المرحلة الدقيقة من الحرب، ولذا تم على الفور تشكيل لجنة بريطانية برئاسة الدبلوماسي بوزارة الخارجية آنذاك سير آرثر نيكلسون Sir Arthur Nicolson (1849-1928) لمقابلة وفد المفاوضات الفرنسي برئاسة مسيو بيكو بغرض: "تصفية الميدان من التفاصيل...حتى لا يتم تمديد المفاوضات، وذلك غير مرغوب فيه نظراً للوضع العسكري والسياسي في الشرق الأدنى"، ولهذا اقترح سير نيكلسون أن يقوم سير مارك سايكس Mark Sykes (16 مارس 1879-16 فبراير 1919) - الذي أسندت له مهمة التفاوض مع الوفد الفرنسي- بالتعاون مع مسيو بيكو، للتفاوض والخروج بمذكرة شاملة وافية حول كل القضايا العالقة<sup>4</sup>.

حرص سير سايكس على كتابة ملاحظاته التوضيحية لوزارة الحرب البريطانية قبل الولوج في صلب الموضوع، فناقش في مذكرته تلك باستفاضة أربع نقاط؛ خصت الثلاث الأولى منها مصالح بريطانيا وفرنسا والعرب في الجزيرة العربية والشام والعراق من وجهة النظر البريطانية، بينما خصص النقطة الرابعة (د) من مذكرته للأماكن المقدسة في فلسطين، والتي أطلق عليها مسمى: "القدس والأماكن المقدسة المجاورة"، فاقترح ضرورة أن تكون ترتيبات تسوياتها: "مرضية للطلبات العقائدية للمسيحية واليهودية والإسلام، فيما يتعلق بوضع القدس والأماكن المقدسة المجاورة"، ولهذا فقد كان سايكس يرغب في أنه يجب: "على الأطراف الثلاثة مراعاة روح من التفاهم"<sup>5</sup>.

نفهم من ذلك أنه ومنذ مطلع يناير 1916، أي قبل توقيع الاتفاقية الثلاثية حول المنطقة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، والتي ستُعرف فيما بعد باسم "اتفاقية سايكس-بيكو"

<sup>3</sup> تم اعتماد مصطلح "فلسطين" في هذه الدراسة بالمعنى الجغرافي والديموجرافي والتاريخي، وليس مصطلح "مدينة القدس" أو "الأماكن المقدسة" أو "القدس والأماكن المقدسة المجاورة" أو غيرها من المسميات التي كان يتم تناولها في المراسلات بين الأطراف المعنية خلال فترة الأحداث التي تناولها تلك الدراسة.

<sup>4</sup> "مذكرة أعدها سير مارك سايكس ومسيو جورج بيكو في وزارة الخارجية عن القضية العربية"، برقم (2767) FO 2767 3711، عن المسألة العربية، بتاريخ 5 يناير 1916، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، (ستة مجلدات): المجلد الثاني 1916، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقي، 1996)، مجلد 2، ط1، ص 669. (فيما بعد: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق).

<sup>5</sup> المصدر السابق، ص 669، 670.

إفي 16 مايو 1916، كانت الرؤية البريطانية متجهة لإنشاء وضع خاص في فلسطين منزوعاً ومستقلاً عن منطقة الهلال الخصيب، نظراً لأهميتها الدينية، وذلك لمعرفتها المسبقة أن لحفائها آنذاك (الفرنسيون الكاثوليك؛ والروس الأرثوذكس) "مصالح دينية" مهمة فيها، لكن في الوقت نفسه كان كل ذلك يتنافى مع الوعود الصريحة أو المستترة التي قطعتها بريطانيا مع حلفائها العرب على الأقل منذ مراسلات مكماهون الحسين سنة 1915، والتي على أساسها دخل العرب بقيادة الشريف حسين مواجهاتهم مع الأتراك في الحجاز والشام.

وبناءً على تلك الرؤية البريطانية التي كانت تتفهم أهمية "المصالح الدينية" الفرنسية والروسية في فلسطين، فقد ركزت مذكرة سايكس وبيكو المشتركة على هذه النقطة في فقرة مستقلة تحت عنوان: "المصالح الدينية الدولية فيما يتعلق بالقدس والأماكن المقدسة"، وفيها أكداً على ثلاث نقاط: الأولى: خاصة بالمذهبين الكاثوليكي والأرثوذكسي، ورأيا أنهما: "يتطلبان عناية متساوية في فلسطين"، وفي النقطة الثانية أشارا إلى أن: "أعضاء الجالية اليهودية في جميع أنحاء العالم لديهم اهتمام ضميري وعاطفي بمستقبل البلاد"، دون أن يفصلاً أو يوضحا ماهية هذا الضمير العاطفي، ونوعية هذا المستقبل، وحدود أو مساحة أو وضع تلك البلاد التي نصا عليها في تلك النقطة. أما في النقطة الثالثة فخصصها لما أسماه "أماكن المسلمين المقدسة"، ورأيا أنه يجب أن تكون هذه الأماكن: "تحت سيطرة المسلمين وحدهم، وأن رئيس الاتحاد الكونفدرالي العربي يجب أن يكون له صوت مساو في إدارة فلسطين". وفي ختام المذكرة التي حملت توقيع كلا من سير مارك سايكس ومسيو بيكو، وبعد عرضهما لاقتراحاتهما حول مصالح بريطانيا فرنسا في البندين الأول والثاني، خصا فلسطين في البند الثالث بنصهما: "في المنطقة البنية [أي فلسطين] يجب تأسيس إدارة دولية يتقرر شكلها بعد المشاورات مع روسيا، وإيطاليا، وممثلي الإسلام".<sup>6</sup>

كان انتهاء المفاوضات البريطاني والفرنسي لهذه النتيجة يعد نجاحاً مهماً في الإطار السياسي لترتيب مستقبل المنطقة بعامة، وفلسطين بخاصة بعيد انتهاء الحرب، بل يمكننا القول إن هذه النتيجة التي توصلنا إليها خلال تلك المرحلة المبكرة نسبياً، ستكون مسودة العمل التي ستسير عليها كافة المفاوضات طوال الفترة اللاحقة، بل ستكون هي ذاتها النتيجة التي سيتم إقرار الأمور عليها، لكن بعد تغييرات وتفاصيل فرضتها تغييرات ظروف الحرب ومواءماتها. ومع ذلك فبمجرد أن أرسلت وزارة الخارجية تلك المذكرة

<sup>6</sup> المصدر السابق، ص 672، 673.

المشتركة إلى وزارة الحرب في ذات اليوم للبت فيها، كانت فاتحة رد الأخيرة في اليوم التالي مباشرة [6 يناير 1916] جملة: "كأننا في وضع يشبه كثيراً وضع الصيادين الذين قسموا جلد الدب قبل اصطياده". فقد كان أوار الحرب مشتعلًا في كل الجبهات، ولم يكن هناك أي مستقبل واضح أو محدد يلوح في الأفق، وكانت المساومات في أوجها خلال تلك المرحلة المبكرة نسبيًا من الحرب، وهذا ما كانت تعنيه وزارة الحرب، ونصت عليه صراحة بجملة: "أن أية مناقشة الآن حول كيفية قيامنا بتقطيع أوصال الإمبراطورية التركية لهي من قبيل الاهتمام النظري". ولذا فقد وجهت نظر وزارة الخارجية إلى أن ما ترغبه وزارة الحرب في تلك المرحلة الدقيقة هو: "ضرورة تحويل العرب إلى جانبنا في أقرب وقت ممكن... إننا لا نستطيع تحمل أي إضاعة للوقت... وإلا فمن المحتمل أن ينضموا [العرب] في النهاية إلى الجهاد الذي يحاول الألمان الدعوة إليه في الشرق الأدنى"<sup>7</sup>.

كان رد وزارة الحرب قاطعًا وحاسمًا إذن بحكم طبيعتها العسكرية الصارمة، ولأنها الأدرى بالحقائق على أرض الواقع الميداني، وكذلك لأن وزارة الخارجية البريطانية -التي كان رجالها يُنظرون من وجهة النظر الحربية- كانت قد أبدت ضعفًا في التعامل مع الأحداث المتلاحقة، إذ كانت تتحمل وقت الحرب العالمية الأولى أعباءً وصلت إلى خمسة أضعاف مسؤولياتها في الظروف العادية، إلى حد أن جميع غرف المبنى وطرقاته تحولت إلى مكاتب للموظفين. وقد ساعد على هذا التقليل لدور الوزارة تلك السياسة التي تبناها لورد إدوارد جراي Lord Edward Grey وزير الخارجية البريطاني (1905-1916)، والتي كانت ترى أنه في أوقات الحرب تكون الدبلوماسية مبنية على المواقف التي تواجهها وزارة الحرب، وزاد على ذلك تلك الخلافات الشخصية بين الوزير ومساعديه، والافتقار إلى الانسجام في العمل بين أقسام الوزارة المتعددة، وبذلك تحول دور وزارة الخارجية إلى تابع لوزارة الحرب<sup>8</sup>.

لكن على الرغم من هذا الضعف الذي كان ينتاب وزارة الخارجية بحكم شخصية وزيرها من ناحية، والمستجدات التي فرضتها الحرب آنذاك من ناحية أخرى، مما اضطر الجميع للخضوع لتوجيهات وزارة الحرب من ناحية ثالثة، فقد كان رجال بريطانيا في

<sup>7</sup> "من بيرجاديير جنرال ماكدونو (وزارة الحرب) إلى سير آرثر نيكلسون (وزارة الخارجية - لندن)، كتاب بتاريخ 6 يناير 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 674، 675.

<sup>8</sup> جمال محمود حجر، القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، تقديم: عمر عبد العزيز عمر (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989)، ص 172-174.

"المكتب العربي" في القاهرة مدركين لخطورة الوضع، ومستمرّون في مساوماتهم وخططهم السياسية، وتطيراتهم حول مستقبل المنطقة العربية، وهذه هي طبيعة السياسيين المهرة على كل حال، فما بالنّا وأن هذا الفريق المعاش لقلب الأحداث كان مدرّكًا لصعوبة التفاوض مع فريق مسيو بيكو، الذي رأوه غير متجاوب مع تطعاتهم في كثير من القضايا<sup>9</sup>، وهو ما أعرب عنه صراحة سير آرثر نيكلسون في مذكرته لوزارة الخارجية بشأن المباحثات: "غير الرسمية التي أُجريت مع مسيو بيكو، وبعد أن تم التشاور حولها"، فقد كان رأي البريطانيين أن مسيو بيكو الفرنسي وفريقه: "لم يكن قادرًا على الفصل بين المسألتين"، ألا وهي -من وجهة النظر البريطانية- استحالة مناقشة الحدود الشمالية للدول العربية، أو تحالف الدول العربية، بدون دراسة الرغبات الفرنسية في سوريا. وتشير المذكرة إلى أن رغبة بريطانيا "الصادقة" في تنفيذ كافة المقترحات المقدمة في مشروع سايكس بيكو: "مرهونة بتنفيذ شروط معينة ضرورية، وتُعطي فرصة كاملة للحلفاء، ولروسيا بصورة خاصة، بأن يكون لهم رأي في التسوية النهائية لهذه الأجزاء من المشكلة كلها"<sup>10</sup>.

وليس هذا فحسب، وإنما كذلك في حالة فشل المفاوضات التي كانت قائمة مع الشريف حسين حول التعاون الأمتل للعرب مع الحلفاء: "فستسقط تلقائيًا كل المقترحات الخاصة بجميع المجالات، سواء أكانت إدارية أم مما يتعلق بالنفوذ". أما إذا أدت

<sup>9</sup> حينما اختارت فرنسا مسيو جورج بيكو ممثلًا لها في التفاوض مع البريطانيين، لم يكن الأمر يروق لرجال مكتب القاهرة البريطانيين، إذ كان سير هنري مكماهون -المنسوب السامي البريطاني في القاهرة وقتها- يرى أن اختيار فرنسا لمسيو بيكو: "هو مؤشر غير مشجع" في موقفها، لأنه -أي بيكو- من وجهة نظر مكماهون: "متطرف معروف في موضوع القضية السورية، وغير قادر أبدًا على المساعدة في أية تسوية متبادلة مبنية على أسس معقولة". وكان مكماهون يقصد من ذلك أن فرنسا لا ترى في سوريا في تلك المرحلة المبكرة جزءًا من الإمبراطورية العربية المزعومة -وهو الذي تبودلت في شأنه مراسلاته مع الشريف حسين وما رافقها من وعود ورفع سقف الأمانى للعرب- وإنما ستبقى تحت الحماية الفرنسية، وبالطبع لم يكن هذا التوجه الفرنسي محببًا لدى رجال مكتب القاهرة البريطاني الساعون في ذلك الوقت -والحديث لمكماهون- لضم العرب بجانبهم بدلًا من تعاونهم الفعال مع العدو.

انظر بالتفصيل: "من سير هنري مكماهون (القاهرة) إلى سير إدوارد جراي (وزير الخارجية - لندن)، برقية رقم 762، بتاريخ 10 ديسمبر 1915"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)*، (سنة مجلدات): *المجلد الأول 1914 - 1915*، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1996)، *مجلد 1*، ط1، ص 631، 632. (فيما بعد: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 1، مصدر سابق*)

<sup>10</sup> "من سير آرثر نيكلسون (وزارة الخارجية - لندن) إلى وزير الخارجية (سير إدوارد جراي - لندن)، مذكرة سري برقم FO 371/ 2767، عن المسألة العربية، بتاريخ 2 فبراير 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية مجلد 2، مصدر سابق، ص 664*.

المفاوضات مع العرب إلى نتيجة مرضية، فإن المقترحات المتعلقة بمصالح فرنسا وورغباتها في المنطقة الملونة باللون الأزرق على الخريطة الأولية بين سايكس وبيكو، تتوقف على موافقة جميع الحلفاء، وتعتمد على الترتيبات التي قد تتخذ في مفاوضات الصلح المتعلقة بمستقبل الإمبراطورية العثمانية. ثم أخذت المذكرة تطرح في تسعة بنود كاملة نوعية تلك العلاقة التي ستربط بين مصالح بريطانيا وفرنسا، مع وضع روسيا في الاعتبار<sup>11</sup>.

ولا يهمننا هنا إلا البندين رقمي 3 و 6 في المذكرة تلك، لارتباطهما بفلسطين، حيث ينص البند الثالث على: "أن تؤسس في المنطقة ذات اللون البني [فلسطين] إدارة دولية سيقدر شكلها بعد التشاور مع روسيا، وبالتالي مع روسيا وإيطاليا وممثلي المسلمين"، بينما نص البند رقم ستة على: "في المنطقة البنية المقترحة ستبقى الرسوم الجمركية التركية الراهنة، وأنها لن تتغير أو تتحول من الرسوم على القيمة التخمينية إلى الرسوم العينية إلا باتفاق الدولتين المعنيتين، وسيشترط أيضًا عدم التمييز فيما يتعلق بتسهيلات الميناء أو السكة الحديدية والرسوم"<sup>12</sup>.

بدا واضحًا تمامًا أن بريطانيا قد عازمت الأمر على سلخ فلسطين من محيطها الجغرافي والديموجرافي العربي، ومعاملتها بصورة خاصة ومنفردة بعيدًا عن "الدولة العربية" أو "اتحاد الدول العربية" المزمع إنشاؤه لإسالة لعاب، وزيادة تطلعات الشريف حسين وأولاده، سواء تم إنشاء هذه الدولة العربية أو هذا الاتحاد العربي أم لم يتم. كذلك بدا واضحًا أنها تفهمت استعداد فرنسا للتعاون معها في هذا الملف طالما حُفظت "مصالحها الدينية الكاثوليكية" هناك، ومن هنا فإن المشكلة التي استجذبت حول هذا الموضوع تمثلت في موقف روسيا، التي كانت معترضة على مخطط سايكس وبيكو، وهو ما أبداه صراحة وزير الخارجية الروسي سazanوف (1910-1916) أثناء لقاء جمع بينه وبين سفيرى بريطانيا وفرنسا في بطرسبورج ليشرح له الأخير أن أبرز الخطوط الرئيسية حول اتفائقيتهما، وذلك بعد أن كان سايكس وبيكو قد سافرا لذات المدينة لإطلاع سفيريهما على ما توصلوا إليه.

دار الاعتراض الروسي -كما أبداه وزير الخارجية- حول رفض توسع فرنسا شرقًا في منطقة النفوذ الملونة باللون الأزرق، على اعتبار أن البريطانيين يكونون بذلك قد أقحموا إسفينا فرنسيًا بين المناطق التي يريدونها وبين المناطق التي لروسيا مصالح بها، وهو ما

<sup>11</sup> المصدر السابق، ص 665-667.

<sup>12</sup> المصدر السابق، ص 666.

نفاه البريطانيون سواء في جلسة الوزير مع السفيرين، أو في جلسته اللاحقة مع سايكس وبيكو لمناقشة ذات الموضوع، إذ حسم سايكس الأمر بقوله: "ليس صحيحًا أن حكومة جلالته ترغب في أية ترتيبات كهذه، وأنها مسألة تخص فرنسا وروسيا وحدهما"<sup>13</sup>. وكان الرد الذي أنهى به سايكس اللقاء هو ذاته الذي أبرقت به وزارة الخارجية في اليوم التالي للسفير البريطاني في بطرسبورج ليؤكد لوزير الخارجية الروسي: "أننا نلتزم بتأكيداتنا التي قطعناها عندئذ، وهي: أنه ليست لدينا أية رغبة للإضرار بمصالح روسيا أو لحث الحكومة الروسية على إعطاء تنازلات في المناطق التي لها مصلحة مباشرة فيها، إذا كان لديهم أي مانع دون ذلك"<sup>14</sup>.

وبالفعل في اليوم التالي [12 مارس] زار السفير البريطاني وسير مارك سايكس وزير الخارجية الروسي وأطلعاه على رد وزارة خارجيتهما، ونفيهما فكرة رغبة بلديهما خلق منطقة عازلة بين الروس والإنجليز، إلا أن الوزير كان لا يزال معترضًا على موضوع توسيع رقعة المنطقة الفرنسية شرقًا، حتى أنه في حديثه مع السفيرين الفرنسي والبريطاني قال الوزير الروسي: "أن المسألة واسعة إلى درجة يجد نفسه مضطرًا بسببها إلى أن يطلب إلى الإمبراطور تشكيل مجلس خاص يضم عدة وزراء إضافة إلى ممثلين عن نائب الملك في القوقاز ورئيس أركان الحرب لدراستها"<sup>15</sup>.

لا نعتقد أن تلك اللهجة القوية التي تحادث بها وزير الخارجية الروسي مع السفيرين البريطاني والفرنسي، وتهديده بالتصعيد على ذلك المستوى كان هدفه رغبة روسية في توسيع مصالحها في سوريا أو الهلال الخصيب، وذلك لعلمنا المسبق أن المصالح الروسية الرئيسية كانت تنصب على رغبتها في وراثة ممتلكات الدولة العثمانية في البحر الأسود والمضائق والبلقان وإستانبول ذاتها، وهي المصالح المرتبطة بمشروعها التاريخي

<sup>13</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 345، بتاريخ 10 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 681، 682.

<sup>14</sup> "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد)، برقية رقم 575K، بتاريخ 11 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 683.

<sup>15</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 351، بتاريخ 13 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 683، 684.

للولوصول إلى المياه الدافئة وتأمين مراكز قوية لها على سواحل البحر المتوسط. لكن يلاحظ من خلال أحداث التاريخ أن التواجد الروسي في منطقة البحر المتوسط، ارتبط في الأساس بأزمات سياسية في شرقي وجنوب شرقي هذا البحر، وهو ما ظهر في حدثين كبيرين أولهما كان حركة علي بك الكبير في مطلع سبعينيات القرن الثامن عشر وتدخل الإمبراطورة يكاترينا الثانية Ekaterina II (1762 - 1796)، وثانيهما تدخل القيصر نيقولاي الأول Nicholas I (1825 - 1855) لصالح السلطان العثماني ضد محمد علي باشا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وبين هذين التواجدين كانت هناك تقاربات روسية عثمانية تخبو وتزيد حسب التغيرات، إلا أنه كان يقابلها دومًا حدوث تقارب فرنسي بريطاني يعمل على تحجيم هذا التواجد الروسي في البحر المتوسط<sup>16</sup>.

وهنا كان على الدولة الروسية البحث عن بديل جديد يتيح لها البقاء في تلك المنطقة الحيوية من العالم، فكانت فكرة تقوية مركزها الديني والأدبي في فلسطين بخاصة والشام بعامة، وكسب ود كثير من مسيحي الشرق من بين الرعايا العرب الأرثوذكس على وجه الخصوص. وقد دعمت سياستها تلك بمنحى جديد كليًا بإنشائها سلسلة مدارس تابعة للبطيركية مجانية بالكامل، كانت تعرف محليًا باسم المدارس المسكوبية، وألحقت بها معلمين عربًا، بل وفي مرحلة لاحقة وأمام إقبال كثير من أبناء الفقراء وصغار الطبقة الوسطى على تلك المدارس تنازلت إدارتها عن تدريس اللغة الروسية فيها كلغة أولى كما كان سائدًا في المدارس الأجنبية الأخرى، نظرًا للحاجز الكبير الذي واجه تدريسها وانتشارها في المنطقة العربية مقارنة بالفرنسية والإنجليزية، التي عادة كان يرتادها أبناء الفئة العليا من الطبقة الوسطى وطبقة الأغنياء. وبالتالي تميزت المدارس الروسية عن مدارس الإرساليات الأخرى باهتمامها الواضح باللغة العربية في برامج التدريس، وتبنيها وضعًا يتلائم وحياة الطلاب المعيشية، فتحسنت سمعتها في المنطقة وزادت شعبيتها، وهو الأمر الذي كان يجد دومًا ترحيبًا ودعمًا من الحكومة الروسية، لأنه كان يعطيها أرضية تزيد من

<sup>16</sup> انظر بالتفصيل: محمد حبيب صالح، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 67، 68، دمشق، يونيو/حزيران 1999، ص 211-219؛

فؤاد المرسي خاطر، "الصراع الروسي العثماني وأثره في الوطن العربي"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلدان 28، 29، القاهرة، 1981، 1982، ص 147، 148.

قدرتها على التحرك في مواجهة فرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية في بلاد الشام بعامة والأماكن المقدسة في فلسطين بخاصة<sup>17</sup>.

وانطلاقاً من تلك الخلفية التاريخية فيمكننا فهم هذا التوجه الروسي في إطار رغبتها في الاحتفاظ بنفوذها القائم في الأماكن المقدسة في فلسطين بوصفها: "حامية الأرثوذكس في الشرق"، ويؤكد ذلك ما صرح به ذات الوزير للسفير الفرنسي باسم الحكومة الروسية بقوله: "إن كل ما يعنيه في فلسطين هو تدويل الأماكن المقدسة... وأن لفرنسا أن تفعل ما تشاء مع المتبقي منها"<sup>18</sup>. وبهذا التصريح كان يمكننا القول إن المشكلة قد حُلت، لكن في الحقيقة أوجس السفير البريطاني خيفة بسببه، إذ كانت فلسطين ذاتها هي لب القضية هذه المرة، ولهذا أعرب السفير البريطاني لوزارته في لندن عن تخوفاته تلك بجملة: "إن الخطر الذي ظهر إلى الوجود من محادثات المسيو سazanوف مع السفير الفرنسي يكمن في أن المحادثات مالت إلى عرض الحكومة الروسية إعطاء فلسطين إلى فرنسا كوسيلة للتعويض عن حكارى وكردستان الشرقية"، وهنا طلب على الفور سير سايكس من السفير رسم خريطة جديدة تراعي تقسيمات المصالح وعرضها على مسيو بيكو، وأرسلوها في وقت لاحق من ذات اليوم للوزير الروسي، وقد اقتنع من حيث المبدأ، وأخبر بالفعل السفير الفرنسي صبيحة اليوم التالي [13 مارس] أنه يدرس القضية ولديه أمل في خلال الأيام المقبلة عرض تعويضات في الأراضي الموعودة لفرنسا في مكان آخر مقابل تنازلها عن حكارى وكردستان الشرقية<sup>19</sup>.

<sup>17</sup> انظر بالتفصيل:

جهاد صالح، *روسيا وفلسطين: العلاقات الروحية والتربوية والثقافية منذ القرن التاسع الميلادي وحتى بداية القرن العشرين* (رام الله/ فلسطين: المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام، 2006)، ص 32-61.

محمد حبيب صالح، "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سوريا وفلسطين) 1840-1914"، *مجلة دراسات تاريخية*، العددان 65، 66، دمشق، سبتمبر - أكتوبر/ أيلول - كانون أول 1998، ص 155-181.

خيرية قاسمية، "روسيا القيصريّة والمشرق العربي"، *مجلة دراسات تاريخية*، العدد 9، 10، دمشق 1982، ص 41-44.

<sup>18</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 351، بتاريخ 13 مارس 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق*، ص 684.

<sup>19</sup> المصدر السابق، ص 685.

وبالفعل اجتمع الوزير بالسفيرين البريطاني والفرنسي صبيحة يوم 15 مارس 1916 لإبلاغهما أنه تناقش مع القيصر في اليوم السابق حول المسألة برمتها، وأنهم وافقوا على الخريطة الجديدة في المنطقة العربية بحيث أنهم مستعدون لإطلاق يدي الحكومتين البريطانية والفرنسية للتصرف بحرية إزاء مسألة الاتحاد العربي جنوب خط أطنة- سيدك، بينما يؤجل البت في قضية تعويض فرنسا بمنطقة أخرى مقابل حكارى وكردستان الشرقية لحين انتهاء المجلس الذي تم تشكيله لهذا الأمر من دراسة الموضوع، وهو ما كان محل ارتياح كبير لمسيو بيكو<sup>20</sup>.

وفي 17 مارس 1916 سلم وزير الخارجية الروسي مذكرته إلى السفيرين البريطاني والفرنسي في بطرسبورج، وبها أربعة مقترحات/ مساومات/ شروط حول مناطق النفوذ والمصالح، وكان المقترح الثالث حول رؤية الحكومة الروسية للأماكن المقدسة في فلسطين، والذي من شأنه: "أن يضمن لكل المؤسسات الأرثوذكسية في الأرض المقدسة حرية ممارسة شعائرها الدينية وصيانة حقوقها وامتيازاتها، وأنه لا مانع لديها من حيث المبدأ من السماح بدخول المستوطنين اليهود إلى البلاد"<sup>21</sup>. وبعد عشرة أيام من تلك المذكرة أبلغ السفير الفرنسي في بطرسبورج نظيره البريطاني أن الحكومة الفرنسية وافقت على مذكرة روسيا سالفة الذكر، مع الاحتفاظ بجميع امتيازات بناء السكة الحديد، وغيرها من الامتيازات، كامتيازات الإرساليات الدينية التي منحها الأتراك للفرنسيين في أية أراض قد يحصل عليها الروس<sup>22</sup>.

نفهم من هذه التفاصيل أن فلسطين خرجت تمامًا من مظلة التوزيع أو التقسيم طالما حصل الروس والفرنسيون على الامتيازات التي يريدونها، وبالفعل نص مارك سايكس على ذلك في برقيته لجلبرت كلايتون Sir Gilbert Falkingham Clayton (1875-1875)

<sup>20</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 370، بتاريخ 15 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 687.

<sup>21</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 382، بتاريخ 17 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 692، 693.

<sup>22</sup> "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 435، بتاريخ 27 مارس 1916"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 694، 695.

1929)<sup>23</sup>، أن: "وجهة النظر الفرنسية الحاضرة هي أن يكون الساحل السوري -بإستثناء فلسطين- كله أزرق تحت العلم الفرنسي"<sup>24</sup>. ثم أكدت هذا الأمر رسمياً وزارة الخارجية في برقيتها لسير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة لتشرح له الحدود الجديدة بالتفصيل، وخصت منها سطرًا واحدًا مستقلًا به خمس كلمات نصها: "فلسطين، غربي الأردن، تكون دولية"، شارحًا أنه أخيرًا تمت تسوية الخلاف الفرنسي الروسي كالاتي: "المنطقة البريطانية لم تتغير؛ المنطقة الروسية لم تتغير؛ منطقة النفوذ الفرنسي لم تتغير....[لكن] القضية المعلقة الوحيدة هي وضع الامتيازات الفرنسية في المنطقة الروسية"<sup>25</sup>.

وبينما كانت التحضيرات على قدم وساق للوصول لهذه النتيجة كان سير مارك سايكس -الذي كان لا يزال في بطرسبورج وقتها- قد تحادث مباشرة مع وزير خارجيته عبر السفير البريطاني في سان بطرسبورج، ليُقحم الصهيونية في هذا المشروع، بالرغم من أن كل ما كان يدور سابقًا كان يتمحور حول تدويل الأماكن المقدسة في فلسطين، لكن كان سايكس -مهندس هذا المشروع بأكمله وعرابه- يرى أن الحكومتين الروسية والفرنسية: "متفقتين عمليًا حول الاتفاقية الأولية، وأن الشريف يبدو على وشك الإقدام على التحرك، فإن الاتفاقية الأولية قريبة من التحول إلى اتفاقية فعلية"، ولهذا طلب سايكس: "توخي أعظم الحيطة الآن بخصوص العرب والصهيونيين، لأن أية زلة في أي اتجاه قد تعرض المشروع للخطر". فقد كان سايكس يرى أن الصهاينة قد يقدمون على خطوات غير محسوبة: "تكون نتيجتها مشابهة لتتقيبات مستر باركر في القدس"<sup>26</sup>، لأنهم قد لا يستحسنون التسوية

<sup>23</sup> من مؤسسي مؤسس المكتب العربي بالقاهرة، وكان رئيس الاستخبارات العسكرية البريطانية في مصر إبان الحرب العالمية الأولى، وتولى إدارة فلسطين بعد احتلالها، وأوكل إليه مهمة التوفيق بين مصالح الحلفاء المتضاربة في سوريا. انظر: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد2، مصدر سابق، ص87، 88.*

<sup>24</sup> "من سير مارك سايكس إلى الكرنل كلايتن، برقية بدون رقم، أدخلت في سجلات الوارد بتاريخ 11 أبريل 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد2، مصدر سابق، ص 696.*

<sup>25</sup> "من وزارة الخارجية (لندن) إلى السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة)، برقية برقم 339، بتاريخ 27 أبريل 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد2، مصدر سابق، ص 698، 699.*

<sup>26</sup> يقصد المواجهات التي تمت في الحرم القدسي الشريف سنة 1911 بسبب مشروع البعثة التتقيبية بقيادة مونتاجو باركر، والتي كانت تهدف للبحث عن أي أثر يعطي للصهاينة دليل مادي يثبت أي شكل من أشكال التواجد القديم لليهود في فلسطين. وقد استمرت تلك البعثة في عملها لمدة سنتين

المقترحة فيطيحون بالمشروع، الذي أكد سايكس على أنهم: "لديهم القوة للقيام بذلك"، دون ذكر نوعية تلك القوة، ولا من أين يكتسبونها، ولا إلى أي مستوى يمكن أن يصل مداها؟! لكنه يعود ويؤكد على اعتقاده بأنه: "بإمكاننا الحصول على تسهيلات استيطانية كاملة لهم مع حقوق موسعة لهم في فلسطين"، مع تأكيد آخر بأن البريطانيين لا يستطيعون: "السيطرة السياسية على القدس ضمن أسوار المدينة أو أي خطة ترمي إلى ذلك"، وليس هذا فحسب، وإنما أعرب عن ثقته كذلك في: "أن الفرنسيين والروس والعرب لن يوافقوا مطلقاً على حل كهذا"<sup>27</sup>.

وبالفعل وافق سير هنري مكماهون في رده على وزارة الخارجية بضرورة الإبقاء على كل هذه المعلومات سرية: "لتجنب احتمال سوء تفسيرها من العرب... وفي وقت لاحق، وحينما تتطور الأحداث أكثر لصالحنا، سيكون بمقدورنا إبلاغ شروط اتفاقيتنا بدون خطر"، وذلك -والحديث لا يزال لمكماهون صاحب المراسلات مع الحسين- على الرغم: "من عدم وجود أي شيء في الترتيب الذي تم الاتفاق عليه بيننا وبين فرنسا وروسيا... مما يتناقض مع أية اتفاقية عقدت مع الشريف وأطراف عربية أخرى، ومع تأكيدات أعطيت له

متقطعتين (1909-1911)، تم خلالهما تجديد عقد الموافقة على عملها من الإدارة العثمانية مرتين، لكن في أبريل 1911 بدأ العمل في سرية تامة داخل مجمع الحرم الشريف نفسه، وبالحرر تحت قبة الصخرة مباشرة، وكان العمل يتم فقط في الليل البهيم، وتحت حراسة مشددة خوفاً من ردة فعل المسلمين، الذين سرعان ما علموا بالخبر، فانتشرت الشائعات كالنار في الهشيم بأن آثاراً مقدسة قد نُهبَت، وأن مؤامرات خطيرة تُحاك ضد الحرم الشريف قد وُضعت، فكانت مواجهات قوية، ليست فقط ضد البعثة البريطانية وحاميتها التي هربت على الفور، وإنما كذلك ضد الإدارة العثمانية المحلية والإدارة المركزية، ذلك لأنه كان واضحاً أن التتقيب لم يكن ليحصل دون إذن من المستويات العليا في إسطنبول، ودون تواطؤ الحكومة المحلية، وكذلك لأنه وقت أن كان التتقيب جارياً كانت حراسة الحرم الشريف منوطة إلى الجندمة العثمانية.

انظر بالتفصيل: لويس فثمان، "حادثة الحرم الشريف سنة 1911: أعيان فلسطين في مواجهة الإدارة العثمانية"، ترجمة: سميح حمودة، *حواليات القدس*، العدد الثامن/ شتاء - ربيع 2009 - 2010، ص 62-73.

<sup>27</sup> "من سير مارك سايكس بواسطة السفير البريطاني في بتروجراد (جورج بيوكانن) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 377 عاجل سري وشخصي، بتاريخ 17 مارس 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية*، مجلد 2، مصدر سابق، ص 690.

أو لهم<sup>28</sup>. وقد اتفقت وزارة الخارجية مع المندوب السامي البريطاني في: "وجوب عدم إفشاء تفاصيل الترتيب"<sup>29</sup>.

### ثانيًا: فلسطين بين الثورة البلشفية والمشاركة الأمريكية وتبدل التفاهات والتوازنات:

جاء إفشاء تلك الأسرار من حيث لا يحتسب البريطانيون والفرنسيون، إذ إنه بقيام البلاشفة الروس بثورتهم في أكتوبر 1917 أعلنوا تحت شعار مكون من كلمة واحدة: "فليسقط"، ومن تحت عباءة هذا الشعار أطلقوا شعارات أخرى دغدغت مشاعر البسطاء والمعوزين مثل: "الخبز للجباة"، و "الأرض للفلاحين"، و "المصانع للعمال" و"السلام للشعوب". وكان نشر المعاهدات السرية جزءًا من هذا التوجه الروسي الجديد الهادف إلى تخريب النظام القديم من العلاقات الدولية، ومن ذلك نشر اتفاقية سايكس - بيكو التي عقدتها إنجلترا وفرنسا في 16 مايو 1916 بالتنسيق مع الحكومة الروسية القيصريّة، فتم إعلام العثمانيين بهذه الاتفاقية، وبدورها أرسلت الحكومة العثمانية نسخة إلى الشريف حسين، وهو ما شكل حرجًا كبيرًا لسمعة بريطانيا وفرنسا خلال تلك المرحلة<sup>30</sup>.

فقد أثارت هذه التطورات حفيظة الشريف حسين بعد أن أرسل له جمال باشا [السفاح] نسخة منها، لكن الساسة الإنجليز كانوا قد عكفوا على دراسة الأمر قبل أن يحدثهم الملك حسين بشأنه، وبالفعل كان سير ريجنالد وينجيت المندوب السامي البريطاني في القاهرة (1917-1919) قد تراسل مع وزارة الخارجية، كي يعلمها أنه أصدر أوامره لإخبار الملك حسين بما يفيد أن البلاشفة الروس وجدوا في وزارة الخارجية ببطرسبورج سجالًا لمحادثات قديمة وتفاهات مؤقتة، وليس معاهدة رسمية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، تفاديًا لقيام صعوبات بين الدول في تنفيذ الحرب ضد تركيا، وأن جمال باشا، الذي أشار

<sup>28</sup> من السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية برقم 329، بتاريخ 4 مايو 1916، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 700، 701.

<sup>29</sup> من وزارة الخارجية (لندن) إلى السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة)، برقية برقم 371، بتاريخ 6 مايو 1916، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 701.

<sup>30</sup> إنكسي فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط: من الرسولية إلى البرجماتية، ترجمة: المركز العربي للصحافة والنشر بموسكو، مراجعة: حمدي عبد الحافظ (القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت)، ص 17-

إلى تلك الاتفاقية في خطبته، والتي نشرت "جريدة المستقبل" تقريرًا عنه في عددها رقم 101، وقرأه الملك حسين، قد شوه الغرض الرئيسي لتلك التفاهات، وأنه حذف بنودها المتعلقة بموافقة السكان المحليين وحماية مصالحهم. ويختم وينجيت برقيته بالتساؤل عما إن كان بإمكانه إضافة جملة: "أننا نعتبر الاتفاقية ميتة من جميع النواحي العملية؟" بسبب قيام الثورة البلشفية وانسحاب روسيا منذ مدة طويلة، وأن هذا قد خلق وضعًا مختلفًا تمامًا<sup>31</sup>. وقد ردت وزارة الخارجية في أقل من يومين ببرقية تؤكد عليه فيها إخبار الملك حسين أن جمال باشا يسعى لإحداث الانشقاق في صفوف الحلفاء، وأن جريدة المستقبل الناشئة للخبر تتبع سياسة تهدف الانضمام إلى فرنسا<sup>32</sup>.

وفي الحقيقة فيمكننا القول باطمئنان أن كل القادة العرب في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وليس فقط الشريف حسين، لم يكونوا على مستوى الحدث التاريخي الذي كان يعاد تشكيله في تلك اللحظة الفارقة، إذ كان يغلب عليهم تفضيلهم المصالح الآنية الوقتية، وأن كل ما كان يهمهم هو ضمان الاستواء ببريطانيا ضد بعضهم البعض، وإذا ما تحدثوا مع ممثلي بريطانيا أو فرنسا كان الحديث يبدو عامًا غير محدد على وجه الدقة<sup>33</sup>. وربما

<sup>31</sup> "من سير ريجنالد وينجيت (المنسوب السامي في القاهرة - الإسكندرية) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 948، بتاريخ 16 يونيو 1918"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)*، (سنة مجلدات): *المجلد الثالث 1917 - 1918*، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقي، 1998)، *مجلد 3*، ط1، ص 346. (فيما بعد: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق*).

<sup>32</sup> "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير ريجنالد وينجيت (المنسوب السامي في القاهرة - رمل الإسكندرية)، برقية رقم 780، بتاريخ 18 يونيو 1918"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية مجلد 3، مصدر سابق*، ص 346، 347.

<sup>33</sup> في منتصف يوليو 1915، أي قبل حوالي كل تلك الأحداث كتب سير مارك سايكس تقريرًا استعرض فيه القوى الموجودة في المنطقة، وبين أنها نوعين رئيسيين؛ الأول هم القادة مثل الشريف حسين في الحجاز والسلطان عبد العزيز في نجد والإدريسي في عسير وغيرهم، وكذلك شخصيات ليست سياسية لكن لها نفوذ مثل الشيخ مثل رشيد رضا؛ الذي وصف شخصيته بالصلف والغطرسة الفكرية بصفته أبرز قادة حركة الجامعتين العربية والإسلامية وله أتباع كثيرون، والشيخ محيي الدين الكردي رئيس رواق الأكراد بالأزهر. وقد أعطى سايكس حكمًا عامًا على كل هؤلاء وهو أن ما يهمهم فقط هو تثبيت أطماعهم أو رؤاهم الشخصية الضيقة. أما النوع الثاني من القوى في المنطقة فلم يكونوا قادة أو يحتلون منصبًا رسميًا لكنهم مثقفون، وخص بالذكر منهم الدكتور فارس نمر رئيس تحرير المقطم، وسعيد باشا شقير، وقد وصفهم سايكس في تقريره أنهم قوى مثقفة، تملك رؤية جيدة وواعية لطبيعة الأمور ونوعية الاستعمار الفرنسي والبريطاني. وفي نهاية تقريره نص على توصيته صراحة وهي: "لقد بات واضحًا أن من المستحيل التوصل إلى أي تفاهم مع أناس يحملون أفكارًا كهذه، وإزاء جماعات من هذا القبيل، يمكن القول بأن القوة هي الحجة الوحيدة التي يمكن أن يفهموها".

كان ذلك ما دفع سير مارك سايكس في رده على برقية سير ريجنالد وينجت بأن يكون أكثر حسماً ودقة، بنفيه المطلق أن يكون الملك حسين قد فوجئ بالأمر من جريدة المستقبل، وإنما كان على علم بالنقاط الرئيسية للاتفاقية وتفاصيلها من مسيو بيكو نفسه، والوفد البريطاني المرافق له حينما زاروه في جدة في مايو 1917<sup>34</sup>.

ويحل سايكس ما أثر على ذهن الملك حسين بسبب ما كان يراه من ممارسات بريطانيا في العراق الهادفة إلى ضمه إلى ممتلكاتها، وليس اعتباره من ضمن الدولة العربية المتخيلة في ذهنه، فضلاً عن تحيزها الواضح لابن سعود، وبحثها لشروط الصلح مع الأتراك ووصايتهم على العرب، في ظل انتكاساتها العسكرية في شرقي الأردن، وكل ذلك بجانب بطء الفرنسيين وترددهم في تبني سياسة عربية بدلاً من سياسة طائفية، والمترافقة جميعها مع دسائس جمال باشا وممارساته الدموية في الشام<sup>35</sup>. أما دائرة الاستخبارات السياسية بوزارة الخارجية فقد قدمت مذكرة عن التزامات بريطانيا تجاه الملك حسين، وافتحتها بجملة: "إن التزاماتنا للملك حسين ليست مسجلة في أية اتفاقية أو معاهدة موقعة، ولا هي التزامات يعترف بها الطرفان، ومن هذه الناحية فإنها تختلف عن التزاماتنا تجاه روسيا وفرنسا وإيطاليا، وبعض الحكام العرب كالإديسي وابن سعود....ومما يعقد الوضع عادة الملك في تجاهل أو رفض ملاحظة الشروط التي نضعها ويعترض عليها، ثم مضيه وكأن المسألة المعنية قد تمت تسويتها بيننا حسب رغبته"<sup>36</sup>.

ترافق قبيل خروج روسيا القيصرية من الحرب ببضعة أشهر بسبب الثورة البلشفية، أن دخلتها الولايات المتحدة في أبريل 1917، وأحدثت الأفكار التي طرحها رئيسها وودرو

انظر بالتفصيل: "من سير مارك سايكس (فندق شبرد - القاهرة) إلى مدير العمليات العسكرية (وزارة الحرب - لندن) تقرير رقم 14، بتاريخ 14 يوليو 1915"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 1، مصدر سابق، ص 495-503*.

<sup>34</sup> انظر تفاصيل تلك الزيارة المهمة في: "من سير مارك سايكس (عدن) إلى المندوب السامي البريطاني في مصر (القاهرة)، برقية بدون رقم، بتاريخ 24 مايو 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق ص 204، 205*.

<sup>35</sup> "مذكرة كتبها سير مارك سايكس لوزارة الخارجية ردًا على برقية سير ريجنالد وينجت، رقم 948، بتاريخ 16 يونيو 1918"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية مجلد 3، مصدر سابق، ص 347، 348*.

<sup>36</sup> انظر بالتفصيل: "مذكرة كتبها دائرة الاستخبارات السياسية بوزارة الخارجية عن التزامات بريطانيا للملك حسين، نوفمبر 1918"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية مجلد 3، مصدر سابق، ص 564-604*.

ويلسون Woodrow Wilson (1913-1921) حينذاك لغطاً وجرأاً مختلفاً عما كان عليه الوضع قبلها، لما كان يراه من ضرورة التبشير بنظام عالمي جديد، حتى أن ويلسون وصف مشاركة بلاده تلك في الحرب بأنها: "حملة صليبية لجعل العالم سالمًا من أجل الديمقراطية". فقد كان ويلسون ينطلق من خلفية فكرية ترى أن الحكومات المتسلطة، ونظم الأحلاف الأوروبية وتوازنات القوى، والتوسع في التسليح، والتنافس الاقتصادي والنظام الكولونيالي المستغل هو المسئول عن نشوب مثل تلك الحرب، وبالتالي فإن فكرته القائمة على الإمبريالية التقدمية، والسلام العالمي كانت كفيلة بنزع فتيل نشوب مثل تلك الحروب المدمرة. وبناءً على ذلك دعا ويلسون إلى أربع عشرة نقطة في خطاب في يناير 1918 اشتهر بخطاب النقاط الأربع عشرة، ومنها النقطة العاشرة الخاصة بحق تقرير المصير (فقط لشعوب النمسا والمجر)<sup>37</sup>، أي للأوروبيين المتأثرين بالحكم الألماني، وليس لكافة الشعوب المقهورة -ومنها العربية- كما كان يُفهم من الديباجة أو كما كان يتم الترويج له حينها.

ولهذا فلا يمكننا التعامل مع نقاط ويلسون في إطارها المثالي، وإنما رؤيتها من زاوية أن الرئيس الأمريكي كان يهدف إلى إزكاء عوامل الانقسام والنزاع والتفتت في أوصال الإمبراطوريات التي يحاربونها، لأن تلك الإمبراطوريات كانت تحكم خليطاً من القوميات والأعراق والإثنيات المتباينة بهدف إضعافها، وكل ذلك تمهيداً لإتاحة الفرصة أمام الولايات المتحدة في التوسع في تلك المناطق على حساب مستعمرها القدامى، وبالتالي تشارك بريطانيا وفرنسا مكاسب ثروات تلك البلدان، وتقسيم مصادر المواد الخام، وضمان تقسيم الأسواق لبيع المنتجات الصناعية الأمريكية، والأهم إتاحة ذات القدر من المساواة في مشاركة المشروعات الأمريكية للتقيب عن بترول المنطقة وإنتاجه وتسويقه<sup>38</sup>.

وعلى الرغم من أنه يُفترض نظرياً أن مسألة فلسطين لم تتأثر بهذين التغييرين: أي خروج القياصرة ودخول الأمريكان؛ على اعتبار أن الأمر كان محسوماً سلفاً بجعلها منطقة دولية منذ منتصف 1916 كما ذكر سابقاً، إلا أنه في الحقيقة كانت قد حدثت تغيرات كثيرة بسبب هذين الحدثين، وهو الأمر الذي اعترف به صراحة مارك سايكس لچورچ بيكو

<sup>37</sup> والتر مكوجال، *أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ 1776*، ترجمة: رضا هلال (القاهرة: دار الشروق، 2000)، ص 179-181.

<sup>38</sup> ممدوح محمود مصطفى منصور، *الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط*، تصدير: محمد طه بدوي (القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت)، ص 72.

في مذكرة شرح له فيها المستجدات حتى صيف 1918، بأن الوضع الأصلي لاتفاقية 1916 قد تأثر تأثيراً عميقاً بخروج روسيا ودخول الولايات المتحدة الأمريكية، وما أسماه سايكس: "تقوية الطابع الديمقراطي لأهداف الحلفاء الحربية بصفة عامة"، بينما أعرب بيكو عن رؤية بأن المعاهدة لا يمكن إلغاؤها لأن مثل هذا العمل سيثير معارضة عنيفة ومشاعر عدوانية بين الاستعماريين في فرنسا، وسيضفي قوة عظيمة للعناصر المالية المؤيدة لتركيا<sup>39</sup>. ومع ذلك فقد اتفق صاحب الاتفاقية على محاولة استثمار هذا الأمر بصورة تخدم مصالح بلديهما بوضع عدد من الخطط البديلة القابلة للتعديل بحيث: "أننا لا نلزم أنفسنا، بأي وجه من الوجوه، بأية فكرة إمبراطورية عربية موحدة...."، وكذلك -من وجهة النظر البريطانية: "تبرئ سياسة بريطانيا من أي تهمة بالإمبريالية"<sup>40</sup>.

فالتغير الجوهري الذي مس فلسطين في تلك المرحلة ارتبط بصورة رئيسية بخروج روسيا القيصرية من المشهد، لأنها وحدها التي كانت مصممة على جعل فلسطين وما بها من أماكن مقدسة منطقة دولية، لكن بتمكن قادة الثورة البلشفية من السيطرة على البلاد وجهت الماركسية اللينينية ضربة قوية لمفاصل النظام الروسي القيصري الديني والاجتماعي، ناهيك عن السياسي والاقتصادي، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من أكثر الخاسرين في ظل هذا النظام الجديد، فضاع سلطانها، وتقلصت صلاحياتها خلال هذا العهد الجديد، بعد أن كانت أبرز أدوات الدولة الروسية في العهد القيصري تجاه فلسطين بخاصة والشام بعامة كما رأينا من خلال دورها في المرحلة السابقة<sup>41</sup>.

<sup>39</sup> كانت المصارف الفرنسية قد أقضت تركيا مبالغ ضخمة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، وبالتالي توقف السداد بقيام الحرب، وأصبح مصير رأس المال الفرنسي مجهولاً، ولذا كان هؤلاء المصرفيون يعارضون تلك الحرب وتدمير تركيا بسبب خشيتهم على أموالهم، أو على الأقل كانوا يريدون حل الأمر في أقرب وقت. وبالمقابل فإن الاستعماريين الفرنسيين كانوا يؤججون من ضرورة الاستمرار في الحرب لما كان سيعود عليهم من "غنائمها" المتوقعة التي لا تحصى ولا تُعد.

انظر بالتفصيل: "تقرير من سير مارك سايكس حول مشكلة الشرق الأدنى، بتاريخ 20 يونيو 1916"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 2، مصدر سابق، ص 272، 273.*

<sup>40</sup> "مذكرة للسير مارك سايكس عن مداولاته الخاصة من المسيو جورج بيكو، بتاريخ 3 يوليو 1918"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 420-422.*

<sup>41</sup> انظر بالتفصيل:

William C. Fletcher, *the Russian Orthodox Church Underground: 1917- 1970* (London: Oxford University Press, 1971), pp. 1, 2.

كان هذا التغيير الجوهري ما دفع مارك سايكس للتحرك سريعاً، إذ كان يرغب في تأكيد الإبقاء على ولاء العرب وتحالفهم في تلك المرحلة التي انتشرت بها الشائعات بعد تسريب البلاشفة للوثائق، ولذا فقد عرّض بالفعل على وزارة خارجيته اقتراحاً يرى ضرورة: "أن تكون بريطانيا وفرنسا مستعدتين للنظر في تأسيس دولة عربية أو اتحاد فيدرالي في منطقة تساوي تقريباً المنطقتين (أ) و(ب)... وفي مقابل ذلك تحصل الدولتان على احتكارات الاستثمار والمالية والمستشارين السياسيين في تلك الدولة أو ذلك الاتحاد". لكن بالنسبة لفلسطين، فإنه وبعد أن اتفق مع من أسماهم سايكس: "الوفود العربية الممثلة للديانات في سوريا"، دون ذكر أسماء تلك الوفود ولا عددهم ولا من يمثلون، فإنهم اتفقوا على أنه: "بالنسبة للدولة العربية الجديدة التي لا بد وأنها ستكون ضعيفة، فإن فلسطين تشكل مشكلات دولية أكثر مما تستطيع أن تضطلع بمسئولياتها، ولكن في حالة الاعتراف باليهود كملة أو أمة في فلسطين، فإنهم ألحوا على وجوب منح اعتراف مماثل للسكان الفعليين"<sup>42</sup>.

ولأهمية هذا الموضوع فقد عُقد في دار الاعتماد البريطاني في القاهرة اجتماعاً في 12 مايو 1917، حضره المندوب السامي البريطاني، وسير مارك سايكس، وكل رجال "المكتب العربي"، وكذلك كل المسؤولين الرفيعين، وابتدأوا الاجتماع بتلخيص من سايكس لنتائج المباحثات بين مسيو بيكو والمندوبين العرب الثلاثة عن حكومة سوريا في المستقبل ومنطقتها الداخلية<sup>43</sup>.

أما بالنسبة للتغيرات التي جرت بدخول الولايات المتحدة، فقد حددتها بريطانيا في مذكرة مستقلة في إطار المراجعات المستمرة لمستجدات تلك الاتفاقية وما طرأ على الموقف التفاوضي، رأت أنه بعد سنة ونصف من توقيع الاتفاقية الثلاثية: "أن مياهاً كثيرة جرت تحت الجسر"، لأن هناك أقاليمًا قد خرجت من قبضة الدولة العثمانية، وأن الولايات المتحدة دخلت على الخط بالمطالبة ب: "مصالح قوية في تركيا الآسيوية، وخصوصاً في سوريا، ويحتمل أن لها على كل حال آراءً ديموقراطية بصدد مستقبل الأقاليم العثمانية

Kristina Stoeckl, *The Russian Orthodox Church and Human Rights* (London– New York: Routledge, 2014), passim.

<sup>42</sup> "من سير مارك سايكس إلى وزارة الخارجية (لندن)، برفقية رقم 18، بتاريخ 30 أبريل 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية* مجلد 3، مصدر سابق، ص 194، 195.

<sup>43</sup> انظر تفاصيل هذا الاجتماع في: "مذكرة عن اجتماع عُقد في دار الاعتماد بالقاهرة في 12 مايو 1917، سري- الشؤون العربية"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية* مجلد 3، مصدر سابق، ص 196-

المحررة، فأصبحت طرفاً يجب أخذه بنظر الاعتبار في أي اتفاق حول الشرق الأدنى". كذلك من المستجدات ظهور من أسمتهم المذكورة: "الأغلبية الساحقة من العرب الذين يتطلعون إلى دولة مسيحية لتحريرهم"، وكذلك: "أكثرية اليهود الصهيونيين"، وكلاهما يرى في بريطانيا: "نصيرهم الرئيسي، بل الوحيد"، وزاد في وصف الصهاينة أن لهم: "الخيار الواضح والملح الذي صرح به اليهود الصهيونيون". غير أن النقطة الرئيسية في المذكرة تلك التي أشارت إلى أن الاتفاقية السرية الأصلية الموقعة سنة 1916 بين الدول الثلاث: "تركت قسماً كبيراً من المنطقة العربية غير مخصصة لأي من الدول الثلاث، ولذا فاقترحت إضافة فلسطين لتكون من بين ذلك القسم غير المخصص"<sup>44</sup>.

وبهذه الخطوة تكون بريطانيا قد سلخت فلسطين تماماً من الجميع لتسيطر عليها بالقوة العسكرية في نهاية 1917، لتبدأ "شرعية" جديدة مستندة للنصر العسكري المنفرد، وهو ما سيتيح لبريطانيا العمل على تمهيد الطريق لتهيئتها كي تكون وطناً للصهاينة، وهذا ما سوف نناقشه في النقطة التالية.

### ثالثاً: فلسطين من التصريح إلى الاحتلال البريطاني:

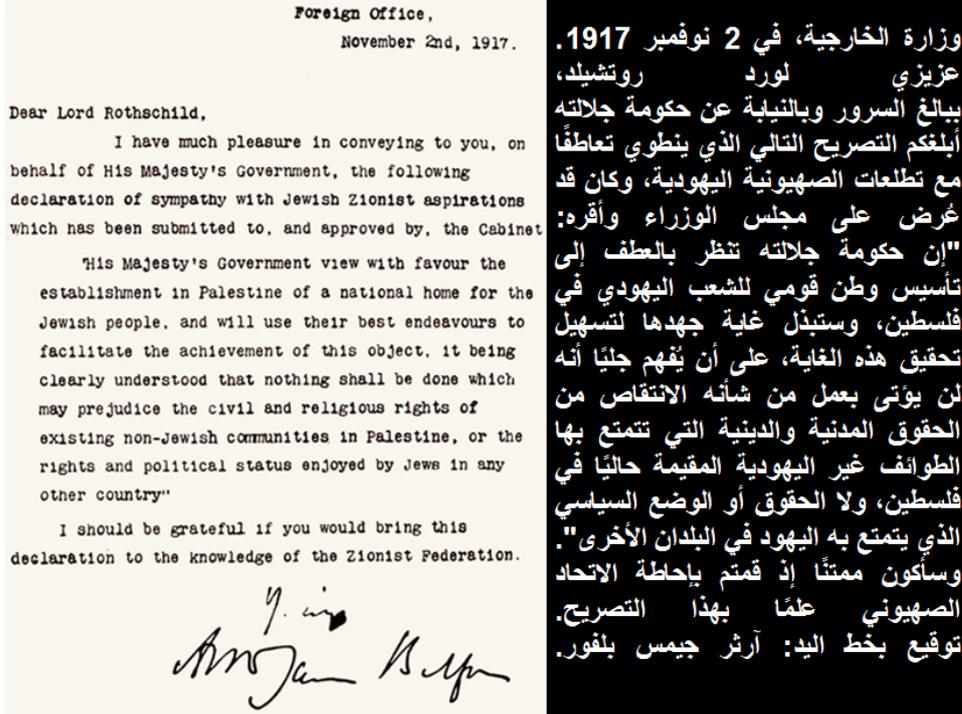
في آخر يوم من شهر أكتوبر 1917 نجحت قوات المشاة التابعة للجيش الثالث البريطاني في مصر Egyptian Expeditionary Force, British Third Army بقيادة فيلد مارشال إدموند أللنبي (Viscount Field Marshal Edmund Allenby (Allenby) في حسم الحرب في فلسطين لصالحها بصورة فعلية بعد انتصارها في معركة غزة الثالثة وسيطرتها على بئر السبع، لتبدأ بعدها لمدة قاربت شهر ونصف عدة عمليات عسكرية بتوغلها شرقاً وشمالاً للسيطرة على كل أجزاء فلسطين، وبالفعل أعلن البريطانيون أن التاريخ الرسمي للانتصار هو 11 ديسمبر 1917، بدخول أللنبي القدس مترجلاً، بعد أن ضمنت القوات البريطانية القضاء على كل جيوب المقاومة في كل فلسطين.

وعلى الرغم من أن تسلسل هذه الأحداث يؤكد على أن قوات أللنبي استغرقت ما يقرب من شهر ونصف لإتمام السيطرة على كل فلسطين، إلا أن وزير الخارجية البريطاني بلفور قد استبق كل ذلك الوقت، وأرسل إلى صديقه لورد روتشيلد خطاباً بعد يومين فقط [2 نوفمبر 1917] من انتصار البريطانيين في معركة غزة الثالثة، ليبشره فيها بعطف الحكومة البريطانية على اليهود لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فهل كان يتنبأ بالمستقبل، أم

<sup>44</sup> "مذكرة عن الاتفاقية الإنجليزية- الفرنسية- الروسية عن الشرق الأدنى، بتاريخ 9 يوليو 1917"، في: الجزيرة

العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 278-281.

كان فرحاً متعجباً وحاول زف البشرى لصديقه، أم أنه بالفعل كان يسير وفق سياسة ممنهجة ومؤسسية معروفة في الدوائر الرسمية البريطانية؟. ولكي نحل هذه المعضلة لا بد أولاً الرجوع لأصل هذا الخطاب الشهير الذي أصدره وزير الخارجية بلفور، والوقوف على الجمل التي جاءت به، وهنا ترجمة حرفية له على النحو التالي:



وتأتي أول نقطة مهمة في تحليل هذا الخطاب، أنه صدر من وزارة الخارجية بصورة رسمية، وذلك بعد أن كان قد تم إدراجه على جدول أعمال مجلس الوزراء البريطاني؛ الذي أقره بناءً على تعاطف مع تطلعات حركة الصهيونية اليهودية [السياسية]، وليس الديانة اليهودية [الدينية]. وبمعنى آخر لم يكن الخطاب وعداً من صديق لصديقه وفق الجملة الشهيرة: "من لا يملك أعطى من لا يستحق"، فلم يكن هذا التصريح محض صدفة، وإنما كان وفق سياسة ممنهجة دارت في أروقة الحكومة البريطانية منذ مطلع 1916 على أقل تقدير كما قدمنا في الصفحات السابقة. أما في نهاية الخطاب فقد طلب بلفور من المرسل إليه إحاطة الاتحاد الصهيوني علماً به، وهو ما يعني أن الخطاب كان لغرض ما تجاه تلك الجمعية الصهيونية، وليس مجرد شخص لورد روتشيلد في حد ذاته، مع الاحتفاظ بالطبع لقيمة ومكانة هذا اللورد بصفته داعم أساسي للحركة الصهيونية وأحد أبرز قادتها.

أما متن الموضوع فقد ركز بلفور على نقطتين أساسيتين الأولى أن الحكومة البريطانية تحابي اليهود الذين سيتخذون من فلسطين وطناً لهم كطائفة من بين الطوائف

الدينية هناك، لكن دون الانتقاص من الحقوق الدينية والمدنية التي تتمتع بها تلك الطوائف القائمة بالفعل هناك على حد زعمه؛ والثانية أن ذلك الأمر سيكون بمعزل عن الأوضاع السياسية لليهود الآخرين الذين يعيشون في بلدان أخرى غير فلسطين. ومعنى هذا أن بريطانيا كانت تتفهم جيدًا أنها تزرع كيانًا جديدًا في فلسطين [الصهاينة] لتحقيق مآربها، ولا ترغب في استثارة اليهود الآخرين في البلدان الأخرى، سواء أكانوا من المؤيدين للصهيونية أو غير مؤيدين لها، وذلك كي لا يوصموا من قبل حكومات بلدانهم الأصلية بالعمالة أو ازدواجية الولاء لهذا الكيان الجديد، وربما هذا ما دفع كاتب الخطاب لاستخدام كلمة "وطن" وليس "بلد" أو "دولة"، لأن الوطن يحمل الصفة العاطفية، فهو يعيش في وجدان أبنائه، أما البلد أو الدولة فلها حدود جغرافية، وأنظمة سياسية ودساتير وقوانين معروفة، ويعيش فيها أبنائها وفق هذه المعايير والقوانين.

ومن خلال تلك الرؤية الرسمية للخطاب، يمكننا القول باطمئنان أن كافة المؤسسات البريطانية كانت على دراية تامة بهذا التصريح وتعمل في إطاره، صحيح أن العمل على زرع هؤلاء الصهاينة في فلسطين كان على قدم وساق منذ مطلع سنة 1916 على الأقل في إطار مشروع متكامل كما عرضنا في الصفحات السابقة بالتفصيل، إلا أن إصدار هذا التصريح في ذلك الوقت كان له دلالاته المهمة في سياقه التاريخي. لكن ما يهمننا التأكيد عليه أن بلفور اتخذ القرار من واقع صفته الرسمية، وأن الفاعلين الحقيقيين وراء الحدث هم رجال بريطانيا في مكتبها في القاهرة، وعلى رأسهم سير مارك سايكس مهندس كل تلك الأحداث، وعراب المرحلة بدون منازع. ومن هنا فلا نعجب أن يكون مارك سايكس هو أول من أخذ في التحرك بعد أقل من أسبوعين على صدور هذا التصريح لمواجهة أصداء ذبوع فحواه، والعمل على تخفيف حدة آثاره المتوقعة، والترويج لنقارب يهودي عربي إسلامي مسيحي.

لكن الشيء الذي يلفت الانتباه حقيقة هو التعجل في إصدار هذا الخطاب بعد يومين فقط من الانتصار في معركة غزة الثالثة [31 أكتوبر 1917]، على الرغم من أن الانتصار النهائي لم يتم إلا في التاسع من ديسمبر، والدخول الرسمي للقدس كان في الحادي عشر من ديسمبر؟! وليس لدينا تفسير لهذا الأمر إلا من زاويتين؛ الأولى أن مجلس الوزراء عد أن الانتصار آت لا محالة، ولم يبال بالوقت المتوقع لتحقيقه، سواء من حيث طبيعة جغرافية فلسطين، أو نوعية المقاومة وقوتها، إلا أن تلك الفرضية -لو سلمنا بها- ستكون منافية تمامًا لطبيعة الإدارة البريطانية الواقعية والحذرة جدًا في آن واحد، على الرغم من مرونتها الكبيرة، خصوصًا على هذا المستوى من القيادة. أما الزاوية الثانية التي

يمكننا النظر من خلالها لتوقيت إصدار التصريح -وهو ما نميل إليه- فإن مجلس الوزراء اتخذ هذا القرار للتعجيل بترتيبات أخرى كان البريطانيون يريدون الصهاينة عملها في أماكن تطالها الحرب غير المنطقة العربية، كأرمينيا أو البلقان أو آسيا الصغرى أو حتى روسيا البلشفية، وهو ما أشارت له بالفعل برقية من وزارة الخارجية إلى المندوب السامي البريطاني بالقاهرة سير ريجنالد وينجيت.

عرضت تلك البرقية خطابًا كان موجّهًا من سير مارك سايكس للجنرال جلبرت كلايتون لإعلامه أن وزير الخارجية آرثر جيمس بلفور كان قد أرسل خطابًا إلى السيد روتشيلد، وأن الجمعية الصهيونية في لندن تسلمت رسالة تهنئة من أرمينيا تقيد بأن الصهاينة مستعدون للعمل بكل همة في سبيل ما أسماه: "تحرير العرب والأرمن"! وكان سايكس قد كتب تلك الرسالة ليحذر من أن الأتراك والطورانيين يؤسسون تدريجيًا حركة قومية عربية اعتبرها زائفة في مقر القيادة الروسي بجازان، ومن هناك أصدروا بيانًا رسميًا يطرح أهدافهم باسم جمعية التحرير السورية-العربية. واعتبر سايكس أن هدف تلك الجمعية الظاهري تحرير العرب من النير التركي؟!، والتوفيق بين العرب والمسلمين والوطنيين المصريين، لكن هدفها الخفي هو نشر الخلافات بين العرب واليهود، والمسلمين والمسيحيين.<sup>45</sup>

وعلى الرغم من عدم توضيح سايكس كيف أن هناك حركة يقودها أتراك وطورانيون تعمل من قازان بروسيا على تحرير العرب من النير التركي؟!، إلا أنه اختتم توصياته بضرورة إعادة إحياء الجمعية العربية في القاهرة فورًا، والتأكيد للعرب على الأهمية الحيوية لحسن نية اليهود والأرمن، والإشارة لهم بأنهم يتعاون اليهود معهم سيكون لهم من يدافع عنهم في كل بلد من بلدان العالم، وبمساعدة الأرمن سيكون لهم تأثير قوي في مخيلة الديمقراطية البريطانية والأمريكية". وفي فقرة مستقلة وأخيرة، على أن هناك احتمالية لتشكيل جمعية صغيرة في لندن سيكون هدفها المعلن أنها: "ستتصرف بالنيابة عن المواطنين المضطهدين في المناطق غير الأناضولية من تركيا الآسيوية"، وأنها سوف تتألف من الدكتور [حاييم] وايزمان عن الصهاينة، ومستر مالكولم عن الأرمن، والسيد نجيب هاني عن المسيحيين السوريين، وعربي مسلم من الموجودين في لندن عن العرب،

<sup>45</sup> "من وزارة الخارجية إلى المندوب السامي البريطاني (القاهرة)، برقية برقم 1074 حول خطاب من سير مارك

سايكس إلى الجنرال كلايتون، بتاريخ 14 نوفمبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق

البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 307، 308.

على أن يتصرف الأخيران كواحد، وأنه: "سيكون ذا قيمة قصوى لو تلقى العربيان المنضمان إلى الجمعية نوعًا من الموافقة الرسمية من القاهرة ومكة"<sup>46</sup>.

وعلى خلاف ما طرحه سايكس، كانت هناك وجهة نظر أخرى متحفظة بعض الشيء تبناها الجنرال جلبرت كلايتون، الذي كان يدعو إلى التريث بعض الشيء في هذا التوقيت، وليس العمل الدءوب كما اقترح سايكس في برقيته السابق الإشارة لها. فقد شرح كلايتون بالفعل رؤيته تلك في برقية كرد على مقترحات سايكس، وقد رفعها المندوب السامي البريطاني في القاهرة إلى وزارة الخارجية. فعلى الرغم من أقرار كلايتون بتخوفات سايكس التي طرحها في البرقية السابقة، إلا أنه خصص أغلب رده لطرح موضوع أثر تصريح بلفور على الوضع القائم باعتباره: "ترك انطباعًا عميقًا لدى كل من المسيحيين والمسلمين الذين ينظرون بعين الفزع إلى احتمال رؤية فلسطين وحتى سوريا في النهاية بيد اليهود"، الذين يرى كلايتون: "أن الجميع على حد سواء يخشى من قدراتهم العقلية والتجارية المتفوقة"، ومن هنا فقد أوصى كلايتون بأن الإعلان الذي تم لليهود كاف تمامًا خلال تلك المرحلة، وأنه سيكون من الخطورة بشكل خاص السماح بأي إجراء عام لهجرة اليهود أو استيطانهم في فلسطين لحين إحكام الحكم العسكري البريطاني عليها<sup>47</sup>.

كان اقتراح كلايتون هذا بالفعل ما أخذت به الإدارة البريطانية في ذلك الوقت لحين حسمها وحدها السيطرة التامة على فلسطين من ناحية، والعمل على ألا يشاركها أحد لحظة هذا النصر الوشيك من ناحية أخرى، حتى لا يكون له الحق في مطالبات مستقبلية في فلسطين أثناء مفاوضات ما بعد انتهاء الحرب، وعلى الأخص فرنسا صديقتها اللدود. ولهذا فبمجرد أن علم المندوب السامي في مصر وبنجيت -حسب التقارير الواردة للقاهرة- أن الحكومة الفرنسية قد أصدرت تعليماتها إلى مسيو بيكو بأن يشارك في دخول القدس بصورة رسمية، فإنه -أي وبنجيت- والقائد العام البريطاني رأيا أن هذا الأمر غير مرغوب فيه، بسبب الحرص على إبقاء الأمور في فلسطين على أساس عسكري بحت، وطالما أن العمليات العسكرية لم تكن قد انتهت، فبات من المرغوب فيه إيجاد إدارة عسكرية بإمرة القائد العام في المناطق المحتلة، ولهذا فقد اقترح وبنجيت ألا يتوجه بيكو -الذي كان

<sup>46</sup> المصدر السابق.

<sup>47</sup> "من المندوب السامي في مصر (القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن) ، برقية رقم 1281 حول خطاب من الجنرال كلايتون إلى سير مارك سايكس، بتاريخ 28 نوفمبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 310، 311.

سيصل يوم 24 نوفمبر 1917- إلى القدس إلا بعد الدخول الرسمي، لأنه عندئذ لن يكون لحضرة أية أهمية سياسية، على اعتبار أن الأمر سيكون حينها بريطانيًا بحثًا<sup>48</sup>.

ولم يقف الأمر على بيكو وحده، وإنما شملت هذه السياسة الشريف حسين وأولاده كذلك، بناء على توصية من سير مارك سايكس، حيث رُفض مجيء فيصل بن الحسين إلى فلسطين بعد دخول النبي لها رسميًا في 11 ديسمبر 1917 لتقديم التهاني وحضور الاحتفالات، بدعوى أن مجيئة سيكون له أثر سيء على ما أسماه سايكس: "الوفاق بين العرب واليهود"<sup>49</sup>. وكان رفض مجيء ممثل للشريف حسين لحضور الاحتفالات هذه، على الرغم من حرص بريطانيا على إخباره بدخول الجنرال النبي القدس بصورة رسمية في 11 ديسمبر 1917، وأنه قد تأخر احتلال المدينة لتفادي إصابة الأماكن المقدسة بأضرار<sup>50</sup>. وقد رد الملك حسين بعبارات الفرح والافتخار لهذا الخبر السعيد<sup>51</sup>.

أيضًا من المفارقات في هذا الشأن أنه وعلى الرغم من طلب بريطانيا عدم مجيء ممثل للحسين، إلا أن وزارة الخارجية أرسلت للمندوب السامي البريطاني في مصر تطلب رأيه في عدم تقديم الحسين تهنئة بمناسبة احتلال القدس، واقترحت عليه إرسال رونالد ستورز<sup>52</sup> إلى جدة لمقابلته، وتقديم وصفًا لسقوط القدس والإجراءات المتخذة<sup>53</sup>. وقد رد

<sup>48</sup> "من السير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي في مصر - القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية عاجل جدًا، برقم 1262، بتاريخ 24 نوفمبر 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 308، 309.*

<sup>49</sup> "من سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي - القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 1340، بتاريخ 14 ديسمبر 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 316.*

<sup>50</sup> "من المعتمد البريطاني في جدة بالنيابة إلى الملك حسين، برقية رقم 249، بتاريخ 13 ديسمبر 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 315.*

<sup>51</sup> "من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، برقية رقم 24، بتاريخ 13 ديسمبر 1917"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 315.*

<sup>52</sup> كان السكرتير الشرقي لدار الانتداب البريطاني في ذلك الوقت (1908-1917)، وطبعًا كان من مؤسسي "المكتب العربي" في القاهرة، ثم سيتولى منصب الحاكم العسكري للقدس (1917-1920) بعد سيطرة القوات البريطانية الكاملة عليها، ودخولها للنبي في 11 ديسمبر 1917، ثم سيصبح حاكم القدس في ظل حكومة الانتداب البريطاني (1920-1926).

انظر مقدمة أ.د. روف عباس حامد لترجمته لمذكرات ستورز المهمة الموسومة: رونالد ستورز، *توجهات بريطانية شرقية: مذكرات سير رونالد ستورز*، تعريب: روف عباس (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد 540، 2004).

المندوب السامي بأن تهاني الملك حسين الشخصية كانت قد وصلتته عبر ممثله في القاهرة، وفي اعتقاده –أي وينجيت– أن الملك يحتاج إلى فرصة لاستيعاب تقارير الجرائد وغيرها عن الاجتماعات الصهيونية في لندن قبل إلزام نفسه رسمياً. أما بخصوص ستورز فإنه كان مكلفاً بالعديد من الأمور، وربما يزور جدة فيما بعد<sup>54</sup>.

وأمام ذلك الموقف البريطاني اكتفى الملك حسين بإرسال كتاب –عن طريق المعتمد البريطاني في جدة– يهنئ فيها من أسماء حضرة القائد الباسل الجنرال ألنبي، القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين: "إن العناية والحفاوة التي أشرتكم إليها بالأماكن المقدسة هي جزء من شهامتكم وإحساساتكم النجيبة. والتاريخ يغنيننا عن البحث في عظيم موفقيتكم التي ضاعفتم بها بريطانيا العظمى، وإن هذا لهو المقدر لنصر الحقيقة والعدل في كل زمان ومكان"<sup>55</sup>.

ولم تكف بريطانيا فقط بالحيولة دون حضور الشريف حسين أو أي من أبنائه احتفالات سقوط القدس في أيديهم، وإنما كانت تعمل دون كلل أو ممل على قطع أية علاقات بين العرب في المشرق والوطنيين المصريين في مصر، فلم تُدخِل مصر في هذا المخطط من قريب أو بعيد، على الرغم من أن مركز القيادة البريطانية الذي يرسم سياسات تلك المنطقة كان بها، وكان رجال بريطانيا بالقاهرة سعداء للغاية من مستوى الرأي العام المصري الناضج لفهم الخطوط العريضة للتحويلات التي تمر بها المرحلة.

ففي مذكرة للمخابرات البريطانية بتاريخ 14 أغسطس 1917 عن تقييم علاقة مصر والحركة العربية، جاء بها ما نصه: "إن الرأي العام في مصر مثقف بما فيه الكفاية لفهم الخطوط العريضة للحالة السياسية والعسكرية الحاضرة في الشرق الأدنى ليتحقق من الاختلال القريب للإمبراطورية العثمانية القديمة، وليقدر أن القوة العسكرية لحلفاء العرب [في الجزيرة العربية يقصد الشريف حسين وابن سعود والرشيد وإمام اليمن] الأوروبيين تستطيع أن تضمن المستقبل السياسي لهؤلاء العرب. والدعاية السائدة في مصر ضد العرب تناقش بصورة ماكرة، فهي لا تقول إن العرب لن يحققوا فرصة الاستقلال، بل إنهم،

<sup>53</sup> "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي -القاهرة)، برقية رقم 1216، بتاريخ 18 ديسمبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 316.

<sup>54</sup> "من سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي -القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 1367، بتاريخ 19 ديسمبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 317.

<sup>55</sup> "من الملك حسين إلى الجنرال ألنبي (فلسطين)، كتاب، بتاريخ 28 ديسمبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 3، مصدر سابق، ص 324.

من ناحية المزاج وغيره، غير قادرين على استعمال هذه الحرية متى حصلوا عليها. ونرى أن زعماء العرب لن يعترفوا بسيد وحيد، ولن يتحدوا حتى ضد عدو مشترك، وإن فكرة قيام حكومة عربية مستقرة وفعالة حسب الآراء الحديث إنما هو خيال لا يمكن تحقيقه، وإخفاق الملك حسين المزعوم في الحصول على انضمام كبار الزعماء الإقليميين للجزيرة العربية يُذكر للدلالة على أن حكومته مخلوق مصطنع خلقت سياسة الدول الحليفة، ولن يكون قادرًا على ممارسة تأثير عام خارج الحدود الإقليمية سواء أكان أدبيًا أم سياسيًا<sup>56</sup>.

وحتى بعد مرور عامين كاملين على تصريح بلفور، وما تبعه من أحداث كثيرة، لم تتغير تلك الرؤية عن دور مصر، ففي برقية من القيادة العامة بالقاهرة لوزارة الحرب في لندن، ردًا على سؤال من الأخيرة مؤرخ 16 ديسمبر 1919، وبعد تقصي للأخبار: "ليس هنالك ما يدل على تعامل فيصل مع الوطنيين المصريين"، وكذلك أشارت البرقية أنه ليس هناك تعامل له مع الأتراك الذين يعمل وكلاؤهم في سوريا وفلسطين، ولم تشر لوكلاء لهم في مصر، واختتمت البرقية بجملة: "ولكن ليس من المحتمل حتى الآن أن يكون الحزب المعتدل الذي ينتمي إليه معظم أنصار فيصل قد تأثر بهم"<sup>57</sup>.

#### رابعًا: فلسطين والصهيونية في مشروع "الشرق الأوسط" البريطاني.

كما هو معلوم فإنه حتى مطلع القرن العشرين لم يكن مصطلح "الشرق الأوسط" دارجًا لا في الأدبيات السياسية ولا الجغرافية، إذ لم يكن بالعالم سوى شرقيين: الأدنى Near East، أي القريب من أوروبا، وكان يقصد به في المجمل الدولة العثمانية وممتلكاتها؛ والأقصى Far East، أي البعيد عن أوروبا، وكان يُقصد به في المجمل الصين وما حولها، ولذا فإنه لا يوجد خلاف كبير حول التحديد الجغرافي لهذين الشرقيين. وإنما رافق الخلاف ظهور مصطلح "الشرق الأوسط"، والذي أرجعت بعض الدراسات - البريطانية في الأساس - نشأته إلى عام 1900، ونسبوه إلى ضابط بريطاني يُدعى الجنرال سير توماس إدوارد جوردون General Sir Thomas Edward Gordon، غير أن

<sup>56</sup> مقتطف من "مكتبة مصر والحركة العربية، بتاريخ 14 أغسطس 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية مجلد 3، مصدر سابق، ص 293، 294.

<sup>57</sup> "من مقر القيادة العامة (القاهرة) إلى وزارة الحرب (لندن) برقية رقم S/ 1234/1، بتاريخ 25 ديسمبر 1919"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، (ستة مجلدات): المجلد الرابع 1919، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1999)، مجلد 4، ط1، ص 599، 600. (فيما بعد: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 4، مصدر سابق).

المصطلح لفت الأنظار وذاع صيته ابتداءً من شهر سبتمبر عام 1902 عبر مقالة نشرها ضابط بحري أمريكي اسمه ألفريد ماهان Captain Alfred Thayer Mahan. فبعيداً عن جدلية إن كان ماهان الأمريكي هو من صك المصطلح أم نقله/ اقتبسه من جوردن البريطاني، فإن المقالة التي نشرها في مجلة: "Issue of National Review"، قد حدد فيها منطقة "الشرق الأوسط" التي يقصدها بالمنطقة الواقعة حول المحيط الهندي والبحر المتوسط، ولم يستبعد وقتها ضم مالطا وجبل طارق لتلك المنطقة، فقد كان ماهان يتناول الأمر من خلال خلفيته البحرية، ولذا فقد كان يطرح الأمر في إطار أهمية الممرات والمضائق البحرية استراتيجياً وتجارياً. وفي العام التالي نشر ماهان كتاباً عَنَوَّه: الشرق الأوسط، جعل من المنطقة المحيطة بالخليج الفارسي [العربي] منطقة القلب منه، وناقش فيه باستفاضة أهمية تلك المنطقة في الدفاع العسكري عن الهند وعموم آسيا<sup>58</sup>.

ومع قرب انتهاء الحرب العالمية الأولى طرحت بريطانيا مصطلح "الشرق الأوسط" بصورة جديدة بعد تحقيق قواتها نصراً عسكرياً مهماً ترتب عليه احتلال العراق وفلسطين في شهري مارس ونوفمبر 1917 على الترتيب، وهو النصر الذي دعا رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج David Lloyd George (1916-1922) للتصريح بأن: "الأجزاء العربية من الإمبراطورية العثمانية هي "في منطقتنا"<sup>59</sup>. وليس هذا فحسب وإنما طُرحت رؤية جديدة تمكنها من السيطرة على تلك المنطقة الجديدة والحيوية، بحيث تُخرجها من تعهداتها السابقة التي قطعتها مع العرب منذ مراسلات مكماهون- الحسين سنة 1915. فقد كانت العراق وفلسطين من الأهمية بمكان لبريطانيا في تلك المرحلة لدرجة دعت رئيس وزرائها يعلن بأن العراق يحوي مخزوناً هائلاً من البترول ترغب بريطانيا في اهتباله، مفنداً الانتقادات الموجهة لسياسة حكومته في العراق بقوله: "أننا إذا تركناه قد نجد بعد سنة أو سنتين من مغادرتنا نكون قد سلمنا إلى الفرنسيين والأمريكيين بعض من أغنى حقول البترول في العالم"<sup>60</sup>.

<sup>58</sup> انظر بالتفصيل:

Clayton R. Koppes, "Captain Mahan, General Gordon, and the Origins of the Term 'Middle East'", *Middle Eastern Studies*, Vol. 12, No. 1 (Jan., 1976), pp. 95, 96.

<sup>59</sup> Aaron S. Klieman, *Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921* (Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1970), p. 243.

<sup>60</sup> David Fromkin, *a Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Henry Holt and Company, 1989), pp. 501- 509.

أما في فلسطين -التي كانت منطقة دولية في خريطة تقسيم سايكس بيكو- فيلاحظ أنه بمجرد سيطرة بريطانيا عليها بالقوة تم على الفور إصدار تصريح بلفور للصهاينة، وكأن الأمر كان ممنهجًا ومرتبًا له سلفًا. وبصيغة أخرى أكثر تحديدًا فـ "الشرق الأوسط" التي كانت تقصده بريطانيا في تلك المرحلة اقتصر على ترتيب شؤون العراق وفلسطين، ثم سيظهر شرقي الأردن في مرحلة لاحقة أثناء جلسات انعقاد مؤتمر القاهرة في مارس 1921<sup>61</sup>. ومن هنا فقد خلصت السياسة البريطانية تجاه فلسطين إذن بالاستئثار بها منفردة، في وقت عجت فيه المنطقة بأكملها بسيل جارف ومتلاحق من الأحداث بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى والشروع في تسوياتها في مؤتمر فرساي وغيره، وما يهنا الآن الرؤية البريطانية لمنطقة بلاد الشام، والتي أرسل الجنرال كلايتون لوزير الخارجية عدة تقارير مفصلة عنها، كان قد كتبها سير كيناهاان كورنواليس<sup>62</sup> -نائب رئيس الضباط

<sup>61</sup> تتبغى الإشارة أن مصطلح "الشرق الأوسط" يعد مصطلح سياسي في المقام الأول، وليس مصطلحًا جغرافيًا أو ديموجرافيًا، فلم تكن له أبدًا أطر جغرافية أو ديموجرافية محددة، ولذا فقد تطور بصور مختلفة طوال القرن العشرين، وضُمت في إطاره مناطق جغرافية وأخرى حسب مصالح الدول الكبرى، وبخاصة أثناء الحربين العالميتين، لما تميزت به المنطقة من أهمية استراتيجية واضحة. ولذا تتسم الخريطة السياسية لـ "الشرق الأوسط" بأنها حديثة جدًا وسريعة التغير والتبدل، وبأنها سبب للصراعات بصورة متكررة، وبالتالي فإن المعالم والملاحج الجغرافية لخريطة "الشرق الأوسط" قد أُعيد رسمها وتشكيلها مرات ومرات، ومن هنا ظلت الشكوك والملابسات تكتنف التحديد الأكثر دقة لمصطلح "الشرق الأوسط"، فهل يتضمن أفغانستان مثلاً من ناحية الشرق؟، أم هل تتضمن أرمينيا وأذربيجان إليه، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟، وهل بالفعل تشكل دول المغرب العربي جزءًا من هذا الشرق الأوسط بسبب الروابط الدينية والثقافية والبشرية؟، وما هو وجه الدقة في اختزال كل هذه المساحة الجغرافية في فلسطين فقط "قضية الصراع الأولى في الشرق الأوسط"، فهذه كلها قضايا لم تُحسم حتى الآن، لتظل المنطقة إلى يومنا هذا مفتقدة لتحديد جغرافي دقيق، فضلًا عن أنها تضم مزيجًا بشريًا فسيفسائيًا من الأعراق والأجناس.

انظر بالتفصيل: أيان ر. مانرز، وباربرا ماكين بارمنتز، "الشرق الأوسط: مقدمة جغرافية"، في كتاب: ديورا ج. جيرنر (محرر)، *الشرق الأوسط المعاصر: محاولة للفهم*، ترجمة: أحمد عبد الحميد أحمد، مراجعة: روف عباس (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد 565، 2003)، ص 27، 32، 33.

<sup>62</sup> كان ضابط في المخابرات البحرية، من بين الضباط البريطانيين الذين أنشأوا "المكتب العربي" بالقاهرة، وعمل به نائبًا للمدير ديفيد جورج هوجارث، وشارك فيما يسمى بالثورة العربية ضد الأتراك، ثم سيكون نائب رئيس الضباط السياسيين في دمشق، وسيصبح بعدها مدير مكتب القاهرة البريطاني حتى عام 1920، إلى أن سيطلبه الأمير فيصل بالإسم ليكون مستشارًا بريطانيًا له في العراق بعد تنويجه ملكًا عليه عام 1921، وسيظل كورنواليس بالفعل مستشارًا لمدة عشرين عامًا فيما بعد، حتى بعد موت فيصل سنة 1933. انظر: عبد التواب أحمد سعيد، و عبد الرحيم ذوالنون، *العراق في تقارير السفير البريطاني كيناهاان كورنواليس: 1941-1945*، *مجلة آداب الرفادين*، العدد 23، يناير 1992، ص 321-344.

السياسيين في دمشق في ذلك الوقت ورفيق الأمير فيصل بن الحسين- مشفوعاً بتقييم كلايتون له بقوله: "هذه التقارير تعطي قدرًا واضحًا للحالة السياسية، ويمكن اعتبارها صحيحة، لأن اللفتنت كرنل كورنواليس يتمتع بقدر استثنائي من ثقة الأمير فيصل والعرب"<sup>63</sup>، أما التفاصيل فكانت فيما أرفقه كلايتون مع هذه الرسالة من تقارير كان قد بعثها له كورنواليس قبل ثلاثة أسابيع، ومعها خطاب الأمير فيصل أمام وجهاء دمشق<sup>64</sup>.

فقد عمت المظاهرات التي قادها الوطنيون والطلبة بلاد الشام منادية بالاستقلال، وتقاطرت الوفود من كل حذب وصوب للترحيب بالأمير فيصل في الشام، والاستماع إلى خطابه للإعلان عن الاستقلال العام فورًا بدون مراجعة مؤتمر السلام، ومناقشة شكل الحكومة المزمع تأليفها، لكن القائد العام لم يوافق على الفكرة فأهملت. إلا أن ذلك لم يكن يعني شعبية جارفة لفيصل، أو يمنحه مركزًا رسميًا جديدًا - والكلام لكورنواليس في تقريره- لأن الوجهاء لم تكن لديهم توكيلات من طوائفهم، خصوصًا أن ضيافة هذه الوفود كانت على حساب الحكومة. ومع ذلك فقد قام الأمير فيصل بحل "حزب الاستقلال العربي"، و"الاتحاد السوري"، وصرح أنه لن تكون هناك بعد ذلك جمعيات سياسية. ويقدر كورنواليس هذه الخطوة التي اتبعتها فيصل، أنه كان يرمي إلى: "جلب المتطرفين إلى الجماعة ومنع خلق حزب معارضة"، لكنه في الوقت نفسه أعرب عن عزمه طلب الاستقلال الكامل لسوريا، وأمله في منح الاستقلال لبلاد عربية أخرى، وهو يكون بذلك قد صالح أعضاء "الاتحاد السوري" الذين لم يكونوا يفكرون إلا في سوريا فقط، وكذلك أعضاء "حزب الاستقلال العربي" المتحمسين لإمبراطورية عربية كبرى. غير أن هذه التطلعات أصابتها الصدمات المتتالية بسبب قرار الدول العظمى إنشاء نظام انتداب فرنسي في سوريا، وصدمتهم من موافقة بريطانيا على ذلك، لكن كانت آمالهم لا تزال معلقة على إشراف بريطاني أو أمريكي أو حليف مشترك، فقد كانت المشاعر معادية تمامًا لفرنسا<sup>65</sup>.

<sup>63</sup> "من الجنرال كلايتون (رئيس الضباط السياسيين في الحملة الاستطلاعية المصرية - القاهرة)، إلى لورد كيرزون (وزير خارجية بريطانيا - لندن)، كتاب بتاريخ 5 يونيو 1919"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 4، مصدر سابق، ص 468.

<sup>64</sup> "تقرير لضابط الاتصال البريطاني الكرنل كورنواليس عن الحالة السياسية في بلاد العرب"، رقم 24 سري، بتاريخ 16 مايو 1919"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 4، مصدر سابق، ص 468 - 481.

<sup>65</sup> المصدر السابق، ص 468 - 470.

وبعيداً عن موضوع الانتداب على سوريا، فقد كان فيصل بن الحسين في ذلك الوقت يرى أن فلسطين جزء من سوريا الكبرى، ولم يكن من مؤيدي أفكار "الاتحاد السوري"، لكنه من جهة أخرى كان يعلم نوايا حليفته وصانعته بريطانيا تجاه فلسطين والحركة الصهيونية، خصوصاً والكلام هنا لكورنواليس - أنه أخذ يتيقن من صعوبة المصالحة بين الفلسطينيين والصهيونيين، وأخذ يتطلع إلى عقد مؤتمر حول هذا الموضوع، يحشد له الوجيهاء للعمل على تبديل آرائهم أو تليينها، وفي الوقت نفسه يحث اللجنة الصهيونية على تخفيف مطالبها. ويضيف كورنواليس أنه ربما يطلب فيصل عقد مؤتمر للسلام بين الصهاينة والفلسطينيين، الذين وصفهم بأنهم: "مازالوا متشددين كالسابق"، بل منهم من زادت مطالبة بضرورة المواجهة المسلحة ضد الصهيونيين<sup>66</sup>.

وكانت مسألة الانتداب الفرنسي تلك صدمة كبيرة لفيصل ومؤيديه، إذ كانوا يريدون الاستقلال التام، أو الانتداب البريطاني وليس الفرنسي؟! وقد ترافقت تلك الصدمة بعمل بريطانيا الصريح ضد مصالح العرب [الحسين وأبناؤه]، وعدم اعتراف قوى أخرى كالولايات المتحدة - التي كانت مكانتها آخذة في الصعود آنذاك - بالشريف، على الرغم من أن هذا الاعتراف الأمريكي بالشريف - في حالة حدوثه - كان محل ترحيب من المندوب السامي البريطاني وبنجيت، بدعوى أن: "الأثر السياسي لمثل هذا الاعتراف يكون حسناً لدى العرب وفي العالم الإسلامي عامة، إذ إنه يضيف كثيراً إلى نفوذ الملك حسين ومملكة الحجاز الجديدة". لكن بالمقابل حينما عرض وبنجيت هذا الموضوع على القائم بالأعمال الأمريكي بمصر، أبدى الأخير رأيه الشخصي أن هذا الأمر سيكون مخالفاً للمصالح المبدئية التي تتبعها حكومته رسمياً بالاعتراف بتغيير وضع إقليمي بنتيجة الحرب، ولاحظ أن حالة الحرب لا تقوم الآن بين الولايات المتحدة وتركيا، وضرب مثلاً لذلك بأن حكومته لم تر من الملائم تعيين خلف للقنصل العام السابق في مصر كمثال لهذا المبدأ<sup>67</sup>.

وفي خطوة أقوى ضد مصالح الشريف وأبناؤه قررت الحكومة البريطانية إجلاء الجيش البريطاني عن سوريا وقيليقيا حتى نفق طوروس في أول نوفمبر 1919، وإبلاغ الحكومة الفرنسية والأمير فيصل بذلك، لأنها ستستبدل مسئولية حراسة المقاطعات المختلفة

<sup>66</sup> المصدر السابق، ص 470، 471.

<sup>67</sup> "من السير ريجنالد وبنجيت المندوب السامي البريطاني في مصر إلى سير آرثر جيمس بلفور، وزير الخارجية (لندن)، كتاب رقم 228، بتاريخ 2 أكتوبر 1917"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية،

مجلد 3، مصدر سابق، ص 298، 299.

في المناطق التي سيتم الجلاء عنها بقوات فرنسية في الأماكن المنصوص عليها بين بريطانيا وفرنسا وفق اتفاقية سايكس بيكو، وقوات عربية في دمشق وحمص وحماة وحلب، وذلك لأنه بعد إتمام عملية الانسحاب ف: "لن يكون للحكومة البريطانية ولا القائد العام البريطاني أية مسؤولية في المناطق التي انسحب منها الجيش"<sup>68</sup>.

وفي ثلاث فقرات مستقلة ومحددة بشأن فلسطين حددت المذكرة المناطق التي ستحتلها القوات البريطانية، وهي فلسطين من دان إلى بئر السبع، والعراق بما فيه الموصل، وبذلك: "يكون الاحتلال مطابقاً للترتيبات المتخذة في ديسمبر 1918 بين المسيو كليمانسو والمستر لويد جورج". وفي فقرة أخرى مكلمة كانت الحكومة البريطانية مستعدة لأن تبحث في أي وقت موضوع الحدود بين فلسطين وسوريا، وبين العراق وسوريا. وفي حالة وقوع خلاف بشأن الحدود المذكورة فإن الحكومة البريطانية كانت مستعدة لإحالة القضية إلى تحكيم ومحكم يعينه الرئيس ويلسون، وإلى أن تُقرر حدود فلسطين والعراق سيكون للقائد العام البريطاني الحق في احتلال مخافر أمامية بموجب الحدود التي تدعيها الحكومة البريطانية<sup>69</sup>.

وبعدما تلقى الأمير فيصل أخبار هذا الاتفاق الأخيرة بين بريطانيا وفرنسا حول سوريا بحسرة وأسى راسل رئيس وزراء بريطانيا برسائل كان يذيلها عادة بتوقيع "خادمكم المطيع فيصل"، ليبيدي أسفه على هذا الترتيب لأنه: "مجحف تماماً بحقوق العرب، ويخالف ما كانوا يتوقعونه من الحكومتين البريطانية والفرنسية خاصة ومن العالم المتمدين عامة"، وأخذ يكرر أحداث تمت كان يرى ووالده أنها "الشرعية" الأساسية التي تؤهلهم ليكونوا الأولى بمساعدة تلك الحكومات، وأبرزها بالطبع: "مقاتلة الخلافة وجعل البلاد المقدسة ميداناً للحرب"، وذلك من وجهة نظر فيصل انطلاقاً من أنها: "انتصاراً للمبادئ التي جاهر بها الحلفاء أكثر من مرة في خطب وتصريحات، وعلى أقل تقدير يتوقع العرب أن تؤخذ حقوقهم بعين الاعتبار". وفي موضع آخر من مذكرته حاول التذكير أن مطالبه في الاستقلال أو بقبول انتداب بريطاني أو أمريكي وليس فرنسي: "بالمنشور الذي أصدرته معاً

<sup>68</sup> "مذكرة الحكومة البريطانية حول احتلال سوريا وفلسطين والعراق ريثما يتم اتخاذ القرار بشأن الانتدابات (باريس)، بتاريخ 13 سبتمبر 1919"، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 4، مصدر سابق،

ص 562، 563.

<sup>69</sup> المصدر السابق.

[بريطانيا وفرنسا] في نوفمبر 1918، فضلاً عن عهد عصبة الأمم الذي لم ينضب مداده بعد.... وأن الحكومة البريطانية سوف لا تفرض الانتداب على شعب لا يرغب فيه"<sup>70</sup>. وقد رد رئيس الوزراء على الأمير فيصل، الذي لقبه بـ "صاحب السمو" بكتاب يؤكد له فيه أنه ليس من الضروري: "أن أبحث مرة ثانية في الأسباب التي حملت حكومة جلالته على عرض الاقتراحات المذكورة، لأن تلك الأسباب قد أوضحت بما فيه الكفاية في الرسالة التي بعث بها وزير الخارجية إليكم. ونظرًا للأسباب المذكورة يبدو لي أن الاقتراح الذي تبذره هو غير عملي، حكومة جلالته قد أقرت عزمها على أنه يستحيل عليها أن تبقى محتلة لسوريا بالجيش البريطاني....وعليه فمن المستحيل لحكومة جلالته أن تسحب الاقتراحات التي قدمتها لمعالجة القضية السورية خلال هذه الفترة، إلى أن يفصل فيها مؤتمر السلام"<sup>71</sup>.

فما لم يكن يفهمه الأمير فيصل حينذاك ولا والده أن بريطانيا كانت تعمل على سياسة جديدة لإدارة منطقة جديدة أطلقت عليها صراحة مصطلح "الشرق الأوسط"، وكانت تقصد بها في ذلك الوقت فلسطين والعراق؛ هذان القطران الجديدان الذان ورثتهما بعد الحرب العالمية الأولى، وترغب في إنشاء كيان سياسي جديد بهما. ونحن هناك لا يهمنا سياستها تجاه العراق<sup>72</sup>، وإنما مناقشة الخطوة الأخيرة لوضع فلسطين الجديدة. ففي ظل تصاعد تلك الأحداث وتشابكها لم يكن غريباً أن يكون سير هيربرت سامويل Sir. Herbert Samuel المندوب السامي البريطاني في فلسطين High Commissioner of Palestine (1920 - 1925)، والداعم للصهيونية بشكل واضح وصريح، أول من قدم مشروعاً للحكومة البريطانية به تصور لمستقبل فلسطين، وذلك في مذكرة أرسلها إلى لورد كيرزون Lord Curzon وزير الخارجية البريطاني (1919 - 1924)، بعنوان: "سوريا وفلسطين والعراق والدول العربية". وقد حرص سامويل

<sup>70</sup> "من الأمير فيصل بن الحسين إلى المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا" الحكومة البريطانية، مذكرة بتاريخ 21 سبتمبر 1919، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد4، مصدر سابق، ص 564-566.

<sup>71</sup> "من لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا (10 Downing Street, Whitehall; S.W.1.) إلى الأمير فيصل، كتاب بتاريخ 10 أكتوبر 1919، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد4، مصدر سابق، ص 595، 596.

<sup>72</sup> عن سياسة بريطانيا تجاه العراق بالتفصيل انظر: أحمد جلال بسيوني، "بريطانيا بين المقاومة الشعبية وإنشاء المملكة العراقية 1920-1921"، منشور في: مجلة الدراسات التربوية والإنسانية، كلية التربية - جامعة دمنهور، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، لسنة 2023، ص 425-468.

على إرسال تلك المذكرة بصورة سرية وشخصية للوزير، وتأكيدًا من صامويل على ضرورة أن يبدو المشروع سرّيًا وشخصيًا، فقد اختار وقت إرساله للوزير وهو على ظهر إحدى البواخر وليس على مكتبه، وبالتالي لم تأخذ هذه المذكرة رقمها في سجلات الوارد، وكذلك لم تأخذ دورتها عبر الإدارات المختلفة حسب النظام الإداري البريطاني المعمول به.

اقترح صامويل في مذكرته إنشاء خمس دول في منطقة المشرق العربي، تكون الأولى تحت مسمى "سوريا العربية" وعاصمتها دمشق، ويوضع عليها الأمير فيصل بن الحسين ملكًا، والثانية "سوريا الغربية" وتحكمها فرنسا تحت الانتداب، مع الخضوع للإشراف العام من عصبة الأمم، ولو وافق الفرنسيون فلا مانع من أن يكون فيصل ملكًا عليها هي الأخرى؛ والدولة الثالثة تكون "فلسطين" وتحكمها بريطانيا مع الخضوع للإشراف العام من عصبة الأمم، على أن يتضمن الانتداب أحكامًا تتعلق بالوطن القومي اليهودي وترضي الصهيونيين، ولا يُعترف بسيادة فيصل في هذه المنطقة، والدولة الرابعة "الحجاز" وتكون مستقلة تحت سيادة الملك حسين، ويكون له حرية اختيار مستشاريه الأوربيين، أما الدولة الخامسة فهي "العراق"، وتكون تحت الإدارة البريطانية، ولا مانع من وجود ملك عربي، كذلك فلا مانع من أن تكون دولة سادسة في البصرة وما جاورها<sup>73</sup>.

وفي الجزء الثاني من الخطاب استفاض صامويل في شكل العلاقات بين تلك "الدول" المقترحة بأن يُؤلف مجلس دائم يتخذ من دمشق مركزًا له، يكون به ممثل عن كل "دولة" ويكون تحت الرئاسة الفخرية للأمير فيصل، أو يُعين رئيسه من قبل عصبة الأمم، وتتعهد تلك "الدول" المزمعة على ألا يثير إحداها حربًا على الأخرى، فعلى هذا الاتحاد أن يكون اقتصاديًا لا سياسيًا، ولذا فإن من مهام المجلس المقترح الإشراف على تخصيص عادل للإيرادات الجمركية، والعمل على ألا يكون هناك موانع جمركية بين تلك "الدول"، أو موانع في تنقل المواطنين القاطنين بها من "دولة" لأخرى داخل هذا التجمع؛ والتأكيد على أنه من حق "الدول" الحبيسة التي لا تطل على موانئ استعمال كافة الموانئ التي تطل

<sup>73</sup> من مستر هيربرت صامويل (المندوب السامي البريطاني في فلسطين) إلى لورد كيرزن (وزير الخارجية - على ظهر الباخرة "هيلونان")، كتاب بدون رقم، خصوصي وشخصي، بتاريخ 2 أبريل 1920، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)*، (سنة مجلدات): *المجلد الخامس 1920*، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 2001)، *مجلد 5*، ط1، المذكرة المرفقة بالكتاب، ص 197، 198. (فيما بعد: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 5*، مصدر سابق).

عليها جاراتها، وأن يكون لعصبة الأمم الحق في التدخل حال فشل المجلس في حل أية قضية عالقة<sup>74</sup>.

وكما هو واضح فيما راسل به صامويل كيرزون بشكل شخصي وليس رسمي أنه لم يكن يهيمه من مقترحه هذا سوى التأكيد على ما يراه حقوق الصهاينة اليهود في فلسطين، أما باقي المنطقة العربية بعامة والهلال الخصيب بخاصة، فلم يكن يهيمه فيها سوى خلق كيانات هلامية؛ محدودة جغرافياً، وضعيفة مادياً، ومتصارعة سياسياً، ومقاتلة اقتصادياً، وذلك لخدمة مشروعه الأسمى للدفع بتفوق الصهاينة على العرب جميعاً. ولهذا فلم تقبل الإدارة البريطانية مثل هذا الاقتراح، ليس لعدم موافقتها على ما جاء فيه، وإنما لأن مستقبل طرحه بهذا الشكل لن يُكتب له الاستقرار والديمومة في المستقبل المنظور كما كانت الإدارة البريطانية تخطط، وهنا تأتي أهمية المقترح الذي قدمه ميغور هيوبرت يونج Maj. Hubert Young (1885 - 1950)، الذي كان يعمل وقتها ضابطاً في الجيش البريطاني في الهند، وحصل على لقب سير أثناء خدمته هناك، ثم أنتدب للعمل في الدائرة الشرقية والمصرية بوزارة الخارجية، ومنها قدم مشروعه.

كان يونج الأوضح في تحديد منطقة "الشرق الأوسط" الذي يقصده خلال تلك الفترة [1920] -من زاوية الأهمية التي تصب في صالح الحكومة البريطانية-، إذ اعتبرها تلك المنطقة التي تضم مصر، وفارس، وجزيرة العرب، وفلسطين، والعراق، ورأى أن لتلك المنطقة وضعها الجغرافي المميز، وأن أكثرية سكانها يتحدثون اللغة العربية ويدينون بالدين الإسلامي. ولم يغفل يونج سوريا والحجاز في أهميتهما، لكنه أسقطهما من طرحه صراحة، بل واعتبرها: "قطرين أجنبيين تماماً"، على الرغم من وقوعهما في ذات الحيز الجغرافي والثقافي والديني الذي بنى على أساسه هذا الطرح، مبرراً ذلك بأن بريطانيا لن تكون مسئولة عنهما في المستقبل القريب حسب الاتفاق مع فرنسا، لكنه نصح المسؤولين البريطانيين بضرورة الاهتمام الدائم بهاتين المنطقتين لأسباب استراتيجية وسياسية على رأسها وجود الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز، وامتداد سوريا الجغرافي الطبيعي لفلسطين والأردن وكلاهما تحت السيطرة البريطانية. أما مصر فقد رأى أنه من المفهوم سلفاً أنها ستبقى فعلاً ضمن الإمبراطورية البريطانية مع احتفاظها بحكومتها الأهلية الخاصة، في حين أنه اعتبر أن فارس وجزيرة العرب: "أقطاراً مستقلة تعتمد على استشارة حكومة صاحب الجلالة"، والعراق رأى أن يكون مستقلاً بصورة مؤقتة تحت الانتداب

<sup>74</sup> المصدر السابق، ص 198، 199.

البريطاني، وفلسطين تتطلب قدرًا أكبر من السيطرة الإدارية: "ضمانًا لتنفيذ السياسة الصهيونية لحكومة صاحبة الجلالة". وفي المحصلة يرى يونج أنه فيما عدا فلسطين وقلعة عدن، فليس من المتوقع أن يكون هناك حكم بريطاني مباشر لمنطقة "الشرق الأوسط"، وإنما: "ستكون المناطق المختصة بحكومة إسميًا بحكومات أهلية يساعدها مستشارون بريطانيون"<sup>75</sup>.

وفي اقتراحه لبدائل ممكنة في المستقبل للسيطرة على "الشرق الأوسط"، بدلًا من إلقاء الموضوع برمته على عاتق وزارتي الخارجية والهند، هي أن تكون علاقات بريطانيا مع كل من فارس والحجاز وسوريا علاقات خارجية، وأن تتولى وزارة الخارجية البريطانية إدارة العلاقات مع من أسماهم "حكام العرب المستقلين" الآخرين في شبه الجزيرة العربية خارج حدود الحجاز. أما مصر فلها أهمية خاصة لكل الدول الأوربية العظمى، وتنشأ معها قضايا تستوجب مراسلة دبلوماسية، ولذا فلا بد من الأخذ في الاعتبار استبعاد مصر من رقابة وزارة الخارجية، والعهد بها إلى وزارة إدارية لا سياسية، وهو ما سيكون له أهمية كبيرة على الشعور المحلي. ولا تقل فلسطين والعراق أهمية عن مصر في هذا المضمار، بالرغم من اختلاف وضعيتهما عنها، خصوصًا إذا أصبحت فلسطين قُطرًا دوليًا، ويؤكد أنه إذا قُدر لها أن تكون "وطنًا قوميًا لليهود من كل أصقاع العالم"، سيحتم أن يكون لممثل الحكومة البريطانية في فلسطين وضع يهيء له الاتصال رأسًا مع ممثلي الأقطار الأجنبية، ولذا فمن المستحسن أن يكون تابعًا لأوامر وزارة الخارجية، كذلك يجب الأخذ في الاعتبار أن الحكومة البريطانية ستكون هي المسؤولة عن العراق وفلسطين أمام عصبية الأمم، باعتبارها صاحبة الانتداب<sup>76</sup>، وبالفعل سيتم بالأخذ بمقترحات يونج وتوصياته، خصوصًا في آخر نقطتين، وليس هذا فحسب، وإنما سيتم العمل على أساسها لتهيئة مسرح الأحداث لإنشاء دول "الشرق الأوسط" حسب المفهوم البريطاني في مؤتمر القاهرة 1921.

لم يغيب عن الرأي العام العربي آنذاك توجهات السياسة البريطانية تجاه فلسطين وعملها صراحة على تهيئتها لإنشاء وطن قومي للصهاينة، خصوصًا مع تعيين هيربرت صامويل مندوبًا ساميًا لفلسطين سنة 1920، وبضغط من هذا الرأي العام العربي،

<sup>75</sup> "مذكورة عن السيطرة على الشرق الأوسط في المستقبل، أعدها الميجر هيوبرت يونج الضابط في الجيش الهندي، والمنتدب للعمل في الدائرة الشرقية والمصرية بوزارة الخارجية، بتاريخ 17 مايو 1920"، في:

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 5، مصدر سابق، ص 233-237.

<sup>76</sup> المصدر السابق، ص 243، 244.

خصوصًا في الشام أرسل الأمير فيصل بن الحسين في آخر مايو 1920 كتابًا مستعجلًا إلى لورد أَلنبي، المندوب السامي البريطاني في مصر High Commissioner of Egypt (1919-1925)، يستفسر فيه عن خبر هذا التعيين، ووصفه بأنه كان له أسوأ الأثر على العرب المتيقنين من صهيونية صامويل، وأن همه الشاغل إنشاء دولة يهودية في فلسطين، التي هي جزء من سوريا الكبرى. وحذر فيصل في رسالته من القلاقل التي سيتثيرها الأمر، خصوصًا أن الاضطرابات كانت قائمة بالفعل في القدس بسبب محاباة اليهود في الأحكام الجنائية على حساب المسلمين والمسيحيين، والتي ازدادت وتيرتها بعد سماح السلطات العسكرية في فلسطين للصهاينة بالتسلح ضد المسلمين، بينما تمنع الأخيرين من تجهيز أنفسهم بالسلاح، وتعاقب كل من يحمله بعقوبات قاسية بالسجن لآمد طويلة وغرامات باهظة. واختتم لورد أَلنبي رسالته لوزير الخارجية كيرزون بأن لديه إجابات وافية على موضوع التسليح والعقوبات ضد المسلمين، لكنه أراد الاسترشاد برأيه بشأن هربرت صامويل<sup>77</sup>.

وفي رده وافق الوزير على أن يرد أَلنبي على فيصل في موضوع التسليح والعقوبات ضد المسلمين، لكن في موضوع تعيين هربرت صامويل، فضل أن يكون الرد بعبارات مطاطة من نوعية أن صامويل عُين لسمعته العالية وخبرته الإدارية الطويلة، وأنه: "بسبب مكانته لدى الصهيونيين مقرونة بتعاطفه المعروف مع العرب، سوف يتمكن من حفظ كفتي الميزان بالتعادل وممارسة تأثير مهديٍّ ومسالٍ في مبدأ النظام الجديد للإدارة المدنية"، وأنه -أي صامويل- سينتهد فرصة سريعة بعد وصوله لفلسطين للاتصال بالأمير فيصل، لإزالة أية أسباب لسوء التفاهم<sup>78</sup>.

وطبعًا من المفهوم سلفًا أن وزير الخارجية البريطاني كيرزون لم يكن يريد أكثر من تخدير الوضع القائم في فلسطين لحين البت النهائي فيه، كما أننا على علم بأن هربرت صامويل كان أول من أرسل مشروعًا أو اقتراحًا بشأن فلسطين. وليس هذا فحسب، وإنما راسل هربرت صامويل وزارة الخارجية في 6 فبراير 1921 بصورة رسمية هذه المرة،

<sup>77</sup> "من فيلد مارشال لورد أَلنبي (المندوب السامي البريطاني في مصر - القاهرة) إلى لورد كيرزون وزير الخارجية (لندن)، برقية رقم 558، مستعجل جدًا، بتاريخ 9 يونيو 1920"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 5، مصدر سابق، ص 262*.

<sup>78</sup> "من لورد كيرزون وزير الخارجية (لندن) إلى فيلد مارشال لورد أَلنبي (المندوب السامي البريطاني في مصر - القاهرة)، برقية رقم 534، مستعجل جدًا، بتاريخ 14 يونيو 1920"، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 5، مصدر سابق، ص 263*.

وليس على شكل خطاب شخصي كما كان في المرة السابقة، ليؤكد على أن فلسطين لم تكن في الذهن ضمن الدولة العربية التي وُعد بها الشريف حسين وقت مراسلات مكماهون الحسين<sup>79</sup>، وقد ردت عليه وزارة الخارجية في 22 فبراير بأنه: "مصيب في افتراضه.... وأن حكومه صاحب الجلالة ترى أن سير هنري مكماهون قد استبعد فلسطين صراحة من المنطقة العربية في رسالته المؤرخة 20 أكتوبر 1915"<sup>80</sup>.

فقد كانت الصهيونية في عمق كل رجالات بريطانيا في المنطقة، لأسباب دينية مرتبطة بالتعاليم الأنجليكانية، وأخرى مالية، وثالثة اقتصادية ورابعة استراتيجية، سيتم طرحها في مؤتمر القاهرة المنعقد في فندق سميراميس خلال الفترة 11- 22 مارس 1921<sup>81</sup>، ولا أدل على أهمية قضية فلسطين والصهيونية في هذا المؤتمر من جلسة هيربرت صامويل على يمين رئيس المؤتمر سير ونستون تشرشل Winston Churchill وزير المستعمرات البريطاني (Secretary of State for the Colonies) 13 فبراير 1921- 19 أكتوبر 1922) المتولي منصبه حديثاً، فهل كانت صدفة أن ينظر رئيس المؤتمر إلى المؤتمرين، وكانوا أربعيناً من أساطين السياسة البريطانية ومساعدوهم، وقال لهم -مداعباً- أتم إذًا: "الأربعون لصًا/ حرامي *The Forty Thieve*؟"، ولذا فقد أشتهر هذا المؤتمر باسم مؤتمر: "الأربعون حرامي"، تمييزاً له عن مؤتمرات أخرى لها أهميات كبيرة عُقدت أيضاً في القاهرة طوال سني الحربين العالميتين الأولى والثانية<sup>82</sup>.

<sup>79</sup> من سير هيربرت صامويل (المندوب السامي في فلسطين - القدس) إلى لورد كيرزن (وزارة الخارجية - لندن)، كتاب رقم 68 بتاريخ 6 فبراير 1921، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)*، (ستة مجلدات): *المجلد السادس 1921-1922*، اختيار وترجمة وتحريرو: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 2004)، *مجلد 6*، ط1، ص 231، 232. (فيما بعد: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 6، مصدر سابق*).

<sup>80</sup> من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير هيربرت صامويل (المندوب السامي في فلسطين)، كتاب رقم 143 بتاريخ 22 فبراير 1921، في: *الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد 6، مصدر سابق*، ص 195، 196.

<sup>81</sup> عن هذا المؤتمر بالتفصيل وما دار فيه انظر بالتفصيل:

James Terry, "The Forty Thieves: Churchill, the Cairo Conference, And the Policy Debate over Strategies of Colonial Control in British Mandatory Iraq, 1918-1924", *PhD thesis* (University of North Carolina, 2008).

أحمد جلال بسيوني، "رؤى بريطانية لإدارة شؤون الشرق الأوسط: 1920-1921"، *مجلة رواق التاريخ والتراث*، العدد السادس، يونيو 2018، ص 43-67.

<sup>82</sup> انظر بالتفصيل:

## النتائج

لعل أولى النتائج التي أبرزتها الدراسة أن ما كتبه وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور للصهيوني لورد روتشيلد في الثاني من نوفمبر 1917، لم يكن وليد الصدفة، ولا محض قرارات اللحظة، ولا بصورة شخصية عاطفية، وإنما كان وفق سياسية ممنهجة ومتسلسلة وضعها رجال بريطانيا في المنطقة، وأقرتها حكوماتها بصورة واقعية وعملت على تطبيقها منذ مطلع سنة 1916. وبالتالي فلا ينبغي أبدًا -على الأقل من جانبنا نحن المتخصصين- التعامل مع ذلك التصريح الذي لعب دورًا مفصليًا لمدة قرن لاحق من الزمان بصورة منفردة، ونزعه من سياقه الزمني وحتميته التاريخية، وحصره فقط في جمل رنانة مسجوعة مثل: "من لا يملك أعطى من لا يستحق" -وهي حقيقة في المجمل- لكن علينا وضع هذا التصريح في سياقه الطبيعي ضمن مخطط متكامل تمتد جذوره إلى المسألة الشرقية التي ارتبطت برجل أوروبا المريض، حتى نصل إلى المستجدات التي فرضتها الحرب العالمية الأولى ونتائجها، وهي الفترة التي وازنت فيها بريطانيا بمرونة بين أبعاد المشروع وفوائده، وبين متناقضات الواقع ومتغيراته المتلاحقة، وذلك عبر رجال مهرة مصقولين أمكنهم إدارة هذا المشروع بالدهاء تارة، وبفرض قوة الأمر الواقع تارة أخرى، حتى تحقق لهم في النهاية ما أرادوا.

أظهرت الدراسة أن المدقق في وثائق تلك المرحلة وتوجهاتها سيلاحظ أن ما كتبه شخصية مهمة مثل مارك سايكس منذ يوليو 1915 هو ذاته ما انتهت إليه فحوى ما صاغه هيوبرت يونج في 1920 بشأن ترتيب الأوضاع في المنطقة بعامه وفلسطين بخاصة، وهي ذات الأفكار التي أخذ بها في مؤتمر القاهرة 1921، وهذا يعني أن المشروع كان قائمًا طوال سنى المخطط، لكنه كان يتسم بالمرونة والتنقل حسب المصالح. ولذا فنعتقد أنه لو كان قد قُدر لسايكس الحياة لسنة واحدة أطول لكان هو المؤدلج لهذه النتيجة، إلا أن المنية وافته في 16 فبراير 1919 في فندقه بباريس أثناء مؤتمر الصلح قبل أن يبلغ الأربعين عامًا بشهر متأثرًا بحمى الإنفلونزا الإسبانية التي كانت شائعة آنذاك. ومن هنا فقد أكدت الدراسة على أن صانعي أحداث تلك المرحلة كانوا رجالًا من نوعية مارك سايكس وجلبرت كلايتون وهيوبرت يونج وإدموند أللنبي وهيبرت صامويل وغيرهم ممن عجت الدراسة بذكر أدوارهم، وليس بلفور الذي كان مجرد موظف يؤدي عمله في

سياق حكومته الاستعمارية، وهي دعوة صادقة للدارسين بضرورة تركيز الأبحاث على أعمال هؤلاء الذين صنعوا أحداث التاريخ.

أكدت الدراسة على أنه كان لدى بريطانيا مشروعًا متكاملًا، لكنه كان يتغير بتغير المستجدات دون تخليه عن هدفه الرئيسي، ولذا فقد كان هناك توجه خاص بفلسطين قبل الثورة البلشفية يراعي مصالح روسيا القيصرية في "الأماكن المقدسة"، حيث كانت شريكًا رئيسيًا لإنجلترا وفرنسا في الحرب، لكن تغير هذا التوجه بخروج الروس من المشهد بعد ثورتهم في خريف 1917، ودخول الولايات المتحدة بأفكار مثالية جديدة غيرت نسبيًا من الموازين القائمة لبريطانيا وفرنسا، ومع ذلك فقد عمل خبرائهما على استثمار هذا الأمر بصورة تخدم مصالح بلديهما بوضع عدد من الخطط البديلة القابلة للتعديل، نجحت بريطانيا بعد أقل من شهرين في الاستحواذ على فلسطين كاملة بإحكام السيطرة عليها عسكريًا، بدخول فيلد مارشال ألنبي للقدس بصورة رسمية، وهنا ظهرت مرحلة جديدة من المشروع البريطاني سعى لترسيخ "شرعنة جديدة" معتمدة على هذا النصر الأحادي، لإقرار الوضع في فلسطين وفق المفهوم البريطاني الجديد لـ "الشرق الأوسط" بالعمل صراحة على تهيتها لإنشاء وطن قومي للصهاينة.

وقد أظهرت الدراسة أن بريطانيا وكذلك فرنسا في كل مراحل هذا المشروع لم تُعير القوى المحلية في منطقة المشرق العربي على كافة توجهاتها أية قيمة أو وزن حقيقي يُذكر، ليس لضعف هذه القوى في المجمل، وإنما لنجاح بريطانيا وفرنسا في تفتيتها من ناحية، وتمكين "قادة" طيعين للتعامل معهم مباشرة باسم تلك القوى من ناحية أخرى، وذلك بعدما ارتضى قادة تلك القوى البارزين أن يكونوا دمي في يدي رجالهما، وأدمنوا الانحدار من مستوى الشريك في صناعة الحدث التاريخي إلى مستوى التابع المتلقي للأوامر والتوجيهات، وفي المحصلة تم إبعاد الأغلب الأعم من هؤلاء "القادة" العرب في أقرب وقت بعد انتهاء الدور المرسوم لهم، أو على الأقل "ركنهم" لبعض الوقت حينما يلوح في الأفق تغيير جديد يمكن خلاله رسم دور مناسب لهؤلاء، كما حدث مع فيصل وعبد الله ابني الشريف حسين على سبيل المثال.

بقيت نقطة أخيرة لختام تلك النتائج، وهي مرتبطة بأن بريطانيا منذ بداية مخططها عملت باجتهاد دون كلل أو ملل في قطع أية علاقات بين حركات العرب في المشرق الآسيوي والوطنيين المصريين في مصر، ولأسباب عديدة أخرى لم تكن مصر يومًا -لا الرسمية ولا الشعبية- طرفًا في هذا المشروع لتقسيم المنطقة لا من قريب أو من بعيد، وهو ما فاضت به الوثائق الرسمية البريطانية والمراسلات التي تمت بين رجالها وخبرائها في

المنطقة. إذ كان هؤلاء الخبراء مدركين أن الرأي العام في مصر ناضج بما فيه الكفاية لفهم طبيعة الخطوط العريضة للحالة السياسية والعسكرية القائمة آنذاك، فضلاً عن إدراكهم أن زعماء العرب لن يعترفوا بسيد وحيد، ولن يتحدوا حتى ضد عدو مشترك، ولا ننسى أن زعماء الحركة الوطنية المصرية آنذاك كانوا مهمومين أكثر بالقضية الوطنية المرتبطة بجلاء الاحتلال.

وتأتي أهمية تلك النقطة في أن السنوات التالية أوضحت بجلاء أن مصر والمصريين تحملوا فواتيراً لمشكلاتٍ إقليمية لم يكونوا يوماً طرفاً أو سبباً فيها، أو كانوا يوماً محرضين عليها، أو داعيين إليها، بل إنه بعد قرن من الزمان باتت مصر تتلقى الطعنات بكافة الصور والأشكال من كل حذب وصوب، وتُكال لها الاتهامات جزافاً ممن لم نعرف لهم يوماً دوراً أو شرفاً، أو نرى لهم فعلاً أو موقفاً. فسلام على أم الصابرين التي تحملت بجلاٍ واقتدار، وتحية إلى شعبها المثابر المغوار، وإلى جيشها الوطني الباسل الذي لم يخن أو يبع أو يساوم أو يفرط يوماً، فما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها.



## قائمة المصادر والمراجع:

أولاً مصادر منشورة باللغة العربية:

1. **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، (ستة مجلدات): **المجلد الأول** 1914-1915، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1996):

• "من سير مارك سايكس (فندق شبرد - القاهرة) إلى مدير العمليات العسكرية (وزارة الحرب - لندن) تقرير رقم 14، بتاريخ 14 يوليو 1915".

• "من سير هنري مكماهون (القاهرة) إلى سير إدوارد جراي (وزير الخارجية - لندن)، برقية رقم 762، بتاريخ 10 ديسمبر 1915".

2. **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، (ستة مجلدات): **المجلد الثاني** 1916، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1996):

• "مذكرة أعدها سير مارك سايكس ومسيو جورج بيكو في وزارة الخارجية عن القضية العربية"، برقم (2767) FO 3711 2767، عن المسألة العربية، بتاريخ 5 يناير 1916".

• "من بريجادير جنرال ماكdonو (وزارة الحرب) إلى سير آرثر نيكلسون (وزارة الخارجية - لندن)، كتاب بتاريخ 6 يناير 1916".

• "من سير آرثر نيكلسون (وزارة الخارجية - لندن) إلى وزير الخارجية (سير إدوارد جراي - لندن)، مذكرة سري برقم FO 3711 2767، عن المسألة العربية، بتاريخ 2 فبراير 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 345، بتاريخ 10 مارس 1916".

• "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد)، برقية رقم K575، بتاريخ 11 مارس 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 351، بتاريخ 13 مارس 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 351، بتاريخ 13 مارس 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 370، بتاريخ 15 مارس 1916".

• "من سير مارك سايكس بواسطة السفير البريطاني في بتروجراد (جورج بيوكانن) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 377 عاجل سري وشخصي، بتاريخ 17 مارس 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 382، بتاريخ 17 مارس 1916".

• "من سير جورج بيوكانن (السفير البريطاني في بتروجراد) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 435، بتاريخ 27 مارس 1916".

- "من سير مارك سايكس إلى الكرنل كلايتن، برقية بدون رقم، أدخلت في سجلات الوارد بتاريخ 11 أبريل 1916".
- "من وزارة الخارجية (لندن) إلى السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة)، برقية برقم 339، بتاريخ 27 أبريل 1916".
- "من السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية برقم 329، بتاريخ 4 مايو 1916".
- "من وزارة الخارجية (لندن) إلى السير هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني بالقاهرة)، برقية برقم 371، بتاريخ 6 مايو 1916".
- "تقرير من سير مارك سايكس حول مشكلة الشرق الأدنى، بتاريخ 20 يونيو 1916".
- 3. **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، (ستة مجلدات): **المجلد الثالث 1917-1918**، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1998):
- "من سير مارك سايكس إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 18، بتاريخ 30 أبريل 1917".
- "مذكرة عن اجتماع عُقد في دار الاعتماد بالقاهرة في 12 مايو 1917، سري- الشؤون العربية".
- "من سير مارك سايكس (عدن) إلى المندوب السامي البريطاني في مصر (القاهرة)، برقية بدون رقم، بتاريخ 24 مايو 1917".
- "مذكرة عن الاتفاقية الإنجليزية- الفرنسية- الروسية عن الشرق الأدنى، بتاريخ 9 يوليو 1917".
- "مقتطف من "مذكرة مصر والحركة العربية، بتاريخ 14 أغسطس 1917".
- "من السير ريجنالد وينجيت المندوب السامي البريطاني في مصر إلى سير آرثر جيمس بلفور، وزير الخارجية (لندن)، كتاب رقم 228 ، بتاريخ 2 أكتوبر 1917".
- "من وزارة الخارجية إلى المندوب السامي البريطاني (القاهرة)، برقية برقم 1074 حول خطاب من سير مارك سايكس إلى الجنرال كلايتن، بتاريخ 14 نوفمبر 1917".
- "من السير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي في مصر -القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية عاجل جدًا، برقم 1262، بتاريخ 24 نوفمبر 1917".
- "من المندوب السامي في مصر (القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن) ، برقية رقم 1281 حول خطاب من الجنرال كلايتن إلى سير مارك سايكس، بتاريخ 28 نوفمبر 1917".
- "من المعتمد البريطاني في جدة بالنيابة إلى الملك حسين، برقية رقم 249، بتاريخ 13 ديسمبر 1917".
- "من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، برقية رقم 24، بتاريخ 13 ديسمبر 1917".
- "من سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي -القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 1340، بتاريخ 14 ديسمبر 1917".
- "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي -القاهرة)، برقية رقم 1216، بتاريخ 18 ديسمبر 1917".

- "من سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي - القاهرة) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 1367، بتاريخ 19 ديسمبر 1917".
- "من الملك حسين إلى الجنرال اللنبي (فلسطين)، كتاب، بتاريخ 28 ديسمبر 1917".
- "من سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي في القاهرة - الإسكندرية) إلى وزارة الخارجية (لندن)، برقية رقم 948، بتاريخ 16 يونيو 1918".
- "مذكرة كتبها سير مارك سايكس لوزارة الخارجية ردًا على برقية سير ريجنالد وينجيت، رقم 948، بتاريخ 16 يونيو 1918".
- "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير ريجنالد وينجيت (المندوب السامي في القاهرة - رمل الإسكندرية)، برقية رقم 780، بتاريخ 18 يونيو 1918".
- "مذكرة للسير مارك سايكس عن مداولاته الخاصة من المسيو جورج بيكو، بتاريخ 3 يوليو 1918".
- "مذكرة كتبها دائرة الاستخبارات السياسية بوزارة الخارجية عن التزامات بريطانيا للملك حسين، نوفمبر 1918".
- 4. الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، (ستة مجلدات): المجلد الرابع 1919، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 1999):**
- "تقرير لضابط الاتصال البريطاني الكرنل كورنواليس عن الحالة السياسية في بلاد العرب"، رقم 24 سري، بتاريخ 16 مايو 1919".
- "من الجنرال كلايتون (رئيس الضباط السياسيين في الحملة الاستطلاعية المصرية - القاهرة)، إلى لورد كيرزون (وزير خارجية بريطانيا - لندن)، كتاب بتاريخ 5 يونيو 1919".
- "مذكرة الحكومة البريطانية حول احتلال سوريا وفلسطين والعراق ريثما يتم اتخاذ القرار بشأن الانتدابيات (باريس)، بتاريخ 13 سبتمبر 1919".
- "من الأمير فيصل بن الحسين إلى المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا" الحكومة البريطانية، مذكرة بتاريخ 21 سبتمبر 1919".
- "من لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا (10 Downing Street, Whitehall; S.W.1.) إلى الأمير فيصل، كتاب بتاريخ 10 أكتوبر 1919".
- "من مقر القيادة العامة (القاهرة) إلى وزارة الحرب (لندن) برقية رقم S/ 1234/1، بتاريخ 25 ديسمبر 1919".
- 5. الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، (ستة مجلدات): المجلد الخامس 1920، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 2001):**

• "من مستر هيرت سامويل (المندوب السامي البريطاني في فلسطين) إلى لورد كيرزن (وزير الخارجية - على ظهر الباخرة "هيلونان")، كتاب بدون رقم، خصوصي وشخصي، بتاريخ 2 أبريل 1920".

• "مذكرة عن السيطرة على الشرق الأوسط في المستقبل، أعدها الميجر هيوبرت يونج الضابط في الجيش الهندي، والمنتدب للعمل في الدائرة الشرقية والمصرية بوزارة الخارجية، بتاريخ 17 مايو 1920".

• "من فيلد مارشال لورد أللنبي (المندوب السامي البريطاني في مصر - القاهرة) إلى لورد كيرزن وزير الخارجية (لندن)، برقية رقم 558، مستعجل جدًا، بتاريخ 9 يونيو 1920".

• "من لورد كيرزن وزير الخارجية (لندن) إلى فيلد مارشال لورد أللنبي (المندوب السامي البريطاني في مصر - القاهرة)، برقية رقم 534، مستعجل جدًا، بتاريخ 14 يونيو 1920".

**6. الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، (سنة مجلدات): المجلد السادس 1921-1922، اختيار وترجمة وتحرير: نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقي، 2004):**

• "من سير هيرت سامويل (المندوب السامي في فلسطين - القدس) إلى لورد كيرزن (وزارة الخارجية - لندن)، كتاب رقم 68 بتاريخ 6 فبراير 1921".

• "من وزارة الخارجية (لندن) إلى سير هيرت سامويل (المندوب السامي في فلسطين)، كتاب رقم 143 بتاريخ 22 فبراير 1921".

#### ثانيًا: مذكرات شخصية:

1. رونالد ستورز، **توجهات بريطانية شرقية: مذكرات سير رونالد ستورز**، تعريب: روف عباس (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد 540، 2004).

#### ثالثًا: مراجع باللغة العربية أو مترجمة إلى اللغة العربية:

1. إلكسي فاسلييف، **روسيا في الشرق الأدنى والأوسط: من الرسولية إلى البرجماتية**، ترجمة: المركز العربي للصحافة والنشر بموسكو، مراجعة: حمدي عبد الحافظ (القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت.).

2. جمال محمود حجر، **القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين**، تقديم: عمر عبد العزيز عمر (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989).

3. جهاد صالح، **روسيا وفلسطين: العلاقات الروحية والتربوية والثقافية منذ القرن التاسع الميلادي وحتى بداية القرن العشرين** (رام الله/ فلسطين: المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والإعلام، 2006).

4. كاري إي ماير؛ و شارلين بلير بريزاك، **صناع الملوك: اختراع الشرق الأوسط الحديث**، ترجمة: فاطمة نصر (القاهرة: سطور الجديدة، 2010).
5. ممدوح محمود مصطفى منصور، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، تصدير: محمد طه بدوي (القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت).
6. والتر مكوجال، **أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ 1776**، ترجمة: رضا هلال (القاهرة: دار الشروق، 2000).

#### ثالثًا: مراجع باللغة الإنجليزية:

1. Aaron S. Klieman, *Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921* (Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1970).
2. David Fromkin, *a Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Henry Holt and Company, 1989).
3. Kristina Stoeckl, *The Russian Orthodox Church and Human Rights* (London- New York: Routledge, 2014).
4. William C. Fletcher, *the Russian Orthodox Church Underground: 1917-1970* (London: Oxford University Press, 1971).

#### رابعًا: رسائل دكتوراه:

1. James Terry, "The Forty Thieves: Churchill, the Cairo Conference, And the Policy Debate over Strategies of Colonial Control in British Mandatory Iraq, 1918-1924", *PhD thesis* (University of North Carolina, 2008).

#### خامسًا: مقالات باللغة العربية:

1. أحمد جلال بسيوني، "سايكس بيكو: إشكالية مسار مخطط من الفكرة إلى الواقع 1914-1921"، منشور في كتاب: **ندوة العالم العربي بعد مائة عام من سايكس بيكو**، إعداد: صالح محمد عمر، إشراف وتقديم: أشرف محمد مؤنس (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، مركز تاريخ مصر المعاصر، 2017)، ص 31-78.
2. أحمد جلال بسيوني، "رؤى بريطانية لإدارة شؤون الشرق الأوسط: 1920-1921"، **مجلة رواق التاريخ والتراث**، العدد السادس، يونيو 2018، ص 43-67.
3. أحمد جلال بسيوني، "بريطانيا بين المقاومة الشعبية وإنشاء المملكة العراقية 1920-1921"، منشور في: **مجلة الدراسات التربوية والإنسانية**، كلية التربية . جامعة دمنهور، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، لسنة 2023، ص 425-468.
4. أيان ر. مانرز، وباربرا ماكين بارمنتز، "الشرق الأوسط: مقدمة جغرافية"، في كتاب: **ديورا ج. جيرنر (محرر)، الشرق الأوسط المعاصر: محاولة للفهم**، ترجمة: أحمد

- عبد الحميد أحمد، مراجعة: رءوف عباس (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد 565، 2003)، ص 23- 61.
5. خيرية قاسمية، "روسيا القيصرية والمشرق العربي"، *مجلة دراسات تاريخية*، العدد 9، 10، دمشق 1982، ص 40- 77.
6. خيرية قاسمية، "من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى: المكتب العربي في القاهرة، قراءة في الوثائق البريطانية"، *دراسات تاريخية*، العددان 17، 18، دمشق 1984، ص 160- 183.
7. عبد التواب أحمد سعيد، و عبد الرحيم ذوالنون، "العراق في تقارير السفير البريطاني كيناهان كورنواليس: 1941- 1945"، *مجلة آداب الرفادين*، العدد 23، يناير 1992، ص 321- 344.
8. فؤاد المرسي خاطر، "الصراع الروسي العثماني وأثره في الوطن العربي"، *مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية*، المجلدان 28، 29، القاهرة، 1981، 1982، ص 147- 219.
9. لويس فثمان، "حادثة الحرم الشريف سنة 1911: أعيان فلسطين في مواجهة الإدارة العثمانية"، ترجمة: سميح حمودة، *حوليات القدس*، العدد الثامن/ شتاء - ربيع 2009 - 2010، ص 62- 73.
10. محمد حبيب صالح، "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سوريا وفلسطين) 1840- 1914"، *مجلة دراسات تاريخية*، العددان 65، 66، دمشق، سبتمبر - أكتوبر/ أيلول - كانون أول 1998، ص 154- 205.
11. محمد حبيب صالح، "الدبلوماسية الروسية في مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر"، *مجلة دراسات تاريخية*، العددان 67، 68، دمشق، يونيو/ حزيران 1999، ص 208- 254.

سادسًا: مقالات باللغة الإنجليزية:

1. Clayton R. Koppes, "Captain Mahan, General Gordon, and the Origins of the Term 'Middle East'", *Middle Eastern Studies*, Vol. 12, No. 1 (Jan., 1976), pp. 95- 98.